خطب ابن نباتة الفارقي

الرؤية والفن

خالد بن محمد الجديع

كلية اللغة العربية - جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية - الرياض

مدخل :

يحرص من يكتب بحثاً على أن يكون الموضوع الذي يعالجه على قدر من الأهمية من جهة، ومن جهة أخرى لم يحظ بعناية الدارسين، ولم يقع تحت مباضعهم .

وبقدر أهمية الموضوع، وبناء على ندرة الدراسة عنه أو انعدامها تتشكل قيمة البحث، وإذا كنا نؤكد على أهمية هذين الأمرين قبل مباشرة أي عمل فإن ذلك لا يقلل من قيمة طبيعة المعالجة التي قد تهبط بموضوع مهم لم يكتب عنه إلا القليل، وقد ترفع موضوعاً أقل أهمية تناولته أقلام الباحثين كثيراً .

ويتنزل هذا البحث في ساحة الدراسة للنصوص النثرية، وهي ذات مساحة أضيق من ميدان الدراسات الخاصة بالشعر، وقد جاء ذلك الضيق وتلك السعة نتيجة التلبس بإرث نظرة الاحترام للنصوص الشعرية .

وإذا كانت الخطبة جنساً نثرياً بدأ كبداية الشعر مرتجلاً يلقى أمام جمهرة من الناس فإنه أضحى بعد ذلك فناً مكتوباً يبدئ الكاتب فيه ويعيد ناظراً بعين التمحيص إلى ما ينشئه شأنه في ذلك شأن سائر النصوص السردية الأخرى التي لا يختلف عنها إلا في كونه يتلى بعد أن يتم إبداعه .

أخلص إلى هذا متجاوزاً كلاماً طويلاً - قد لا يجدي عرضه هنا - يدور حول التقلقل في التصنيف الإبداعي، إذ ليست هناك لدى العرب القدامى أو النقاد المعاصرين حدود فاصلة وسمات مميزة لكل جنس نثري، فقد تتضمن الرسالة - على سبيل المثال - أسلوباً خطابياً، وقد تكتب الخطبة في شكل رسالة .

بل إن ما توصف به الخطابة تشظى إلى مصطلحات يصعب ضبطها، فهي مرة نوع، وتارة فن، وأخرى جنس، وحيناً شكل، وأحياناً نمط، وربما عدت لوناً، أو صنفت على أنها غرض(١) .

وقد دفع ذلك أحد الباحثين إلى القول بأن «المحاولات التي سعى أصحابها إلى تحديد الجنس الأدبي تنم عن حيرة باهظة»(٢) .

وتتوجه هذه الدراسة إلى تناول خطب ابن نباتة الفارقي بعيداً عن أجواء التصنيف، وتحاول أن تواجه تلك النصوص بعد تقديم رؤية وصفية لها لتكتشف أبرز السمات الفنية التي تتسم بها .

وحافز هذه المقاربة مع تلك الخطب يعود إلى عبارة ثمينة لابن خلكان يقول فيها : "وقع الإجماع بأنه ما عمل مثلها، وفيها دلالة على غزارة علمه، وجودة قريحته"(٣)، وإلى إشارة من ابن الأثير يذكر فيها غرام الناس بتلك الخطب وإكبابهم عليها قارناً إياها بمقامات الحريري(٤) .

إن المنزلة العظيمة التي تسنمتها هذه الخطب في تلك الحقبة تجعل الباحث - لأول وهلة - يصدف عن الكتابة عنها ؛ لأنه يظن أن كثيراً من الحبر قد أسيل

وكثيراً من الورق قد استنفد في دراستها .

والواقع أن شيئاً من ذلك لم يحصل، فقد ظلت تلك الخطب نادة عن أعين الدارسين، بعيدة عن أقلامهم، وربما عاد السبب في ذلك إلى كونها طبعت في وقت مبكر، ولم تحظ حتى الآن - حسب علمي - بتحقيق علمي لها، كما أن للكتب حظوظاً مثل حظوظ البشر، منها العاثر ومنها السائر.

ولا تعني الإشارة إلى مقولة ابن خلكان السالفة أن الباحث سيدور في فلكها سائقاً عبارات الثناء والتقريظ لتلك الخطب، بل سيحاول هذا البحث وضع خطب ابن نباتة في ميزان التقويم، في محاولة لرصد جوانب الإبداع أو الإخفاق فيها.

وقبل مباشرة نصوص ابن نباتة الخطابية أجد أن من الأولى التقديم بوقفة تتناول لحظة ولادتها، فهل كتب ابن نباتة هذه الخطب ثم ألقاها ؟ بمعنى أنها لحظة الانطلاقة كانت مكتوبة، أو أنه أنشأها ارتجالاً وخطب بها ثم دونها، بمعنى أنها صيغت أول الأمر شفاهية .

وتكمن أهمية هذا السؤال في أن نمط التلقي لأي من الأمرين يفرض سلطته على تلك الخطب، كما أن التعامل النقدي معها ينبغي أن يراعي هويتها الأولى، فلا يحاكم نصوص المشافهة بمقاييس نصوص الكتابة، هذا بالإضافة إلى أن الوسائط تزيد أو تقل حسب تسلسل تخلق العمل وفق الترسيمة التالية :

البداية		**الوسائط**		**النهاية**
إلقاء	←	كتابة	←	قراءة
كتابة	←	إلقاء + كتابة	←	قراءة

إن المصادر التي تحدثت عن ابن نباتة وخطبه لا تحيل إلى أي من النمطين، ولا تكشف عن النقطة الأولى لانطلاقة النصوص، وإن كنت أميل إلى الأولى منهما؛ لما عرف به ابن نباتة من قدرة خطابية مرتبطة بالارتجال أكثر من ارتباطها بالكتابة .

ويزيد من هذا الميل ما سأشير إليه عند دراسة حياته من أنه رأى في المنام أنه يخطب أمام الرسول ﷺ ارتجالاً، وقد تناقلت المصادر التاريخية هذه الرؤيا وأثبتتها.

وأحسب أن انزياح الأثر الأدبي إلى الشفاهية يترك علامات من السهل اكتشافها أثناء تمعن العمل، وقد برز التكرار - على اختلاف مستوياته - بوصفه مظهراً من مظاهر تلك الشفاهية، ذلك أن العمل المكتوب يستغني عنه لعلم الكاتب أن القارئ يمكن أن يعود إلى قراءة ما لم يدركه، وهذا ما لا يحصل مع ما يلقى، مما يجعل العمل الشفاهي يعيد تصنيع بعض الكلمات أو الجمل، وربما الفقر داخل العمل الواحد، وهذا ما لمسناه في خطب ابن نباتة .

وعدم عمق الأفكار في تلك الخطب مظهر شفاهي آخر، إذ إن الكتابة في البداية وقراءة العمل في النهاية أقرب إلى التعمق من الإنشاء الارتجالي الذي يعقبه تلاوة العمل حتى لو دخلت الكتابة بين المرحلتين .

وإذا كانت النصوص القرائية تتجافى عن التوجه بشكل مباشر إلى المتلقي، وتلجأ إلى شيء من المخاتلة في التقديم، فإن الآثار الشفاهية يواكبها حضور طاغ لصيغ المخاطب، وغالباً من تتواشج صيغة الخطاب مع الأسلوب الطلبي (أطيعوا - توبوا - انتهوا - لا تقربوا - لا تفعلوا ...) .

وقد انعكس هذا المظهر الشفاهي على طريقة دراسة هذا الموضوع، فلم نتح باللائمة على ابن نباتة لعدم إحكام تصميم خطبه، إذ إن ذلك الإحكام من النتائج التدوينية، ولم نخضعه لمعمل التحليل الكتابي ؛ لأن هذا الإخضاع سيقلل من قيمة العمل ويغمطه حقه، لقد تعاملنا مع العمل وفق ظروفه التي أملت نمطها على بنيته .

وسيكون هذا البحث مكوناً من تمهيد يتم فيه تناول حياة ابن نباتة، يعقبه محورا البحث وهما :

١ – الرؤية الوصفية .

٢ – الدراسة الفنية .

* تمهيد : حياة ابن نباتة :

١ – اسمه ونسبه :

ساق ابن حمدون في تذكرته نسبه موجزا، فنص على أنه : عبد الرحيم بن محمد بن إسماعيل الفارقي[٥] .

ولم تزد المصادر التي تحدثت عنه عقب ذلك بعد جده أحداً[٦]، بل اقتصرت الإضافات على ذكر كنيته، أو بعض ألقابه، فهو : أبو يحيى ابن نباتة[٧] الحذافي[٨] اللخمي العسقلاني[٨] .

وقد شذ حاجي خليفة عن جميع تلك المصادر، حيث خالفها في اسم جده، إذ جاء في (كشف الظنون) أن اسمه: أبو يحيى عبد الرحيم بن محمد بن محمد الفارقي[١٠].

٢ – ولادته ونشأته :

نقل ابن خلكان عن ابن الأزرق الفارقي في تاريخه أن ولادة ابن نباتة كانت سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة[١١]، ونص كثير من مصادر ترجمته على هذا التاريخ[١٢] .

وإذا كانت بعض المصادر قد سكتت عن تحديد زمن ولادته[١٣]، فإن اليافعي قد نص على تاريخ لم يرد في أي من مصادر ترجمته، حيث ذكر أن ولادته كانت سنة خمسين وثلاثمائة[١٤] .

أما مكان الولادة فقد ضربت أكثر المصادر صفحاً عن تحديده، غير أننا نعثر على إشارتين مختلفتين إحداهما عند اليافعي، حيث ذكر أنه ولد بعسقلان[١٥]، وعنه نقل ابن العماد الحنبلي[١٦]، والأخرى عند ابن تغري بردي الذي نص على أن ولادته كانت بميافارقين[١٧] .

ولا تكاد مظان ترجمته تسعف بشيء من ظروف نشأته، ولا تحكي طرفاً من أخبار طفولته وصباه، ولا تذكر بعضاً من شيوخه وأساتذته، وكل ما عثرنا عليه فيها هو أنه كان يحفظ (نهج البلاغة) المنسوب إلى علي بن أبي طالب[١٨]، وأغلب الظن أنه حفظ هذا الكتاب في مرحلة الطلب والتلمذة.

وقد ذكر ابن خلكان أنه اجتمع في حلب بأبي الطيب المتنبي وسمع عليه بعض ديوانه[١٩].

٣ – صفاته وما قيل فيه :

تتناثر في مصادر ترجمته ألفاظ الثناء عليه، وعبارات التقريظ لخطبه، وفي أثناء ذلك يرد ذكر طرف من صفاته وأخلاقه، فمن ذلك ما جاء عند ابن خلكان حيث قال فيه : "كان إماماً في علوم الأدب، ورزق السعادة في خطبه التي وقع الإجماع أنه ما عمل مثلها، وفيها دلالة على غزارة علمه، وجودة قريحته"[٢٠] .

ويقول فيه الذهبي : «الإمام البليغ الأوحد، خطيب زمانه، ... صاحب الديوان الفائق في الحمد والوعظ، ... كان فصيحاً، مفوهاً، بديع المعاني، جزل العبارة، رزق سعادة تامة في خطبه، ... وكان فيه خير وصلاح»[٢١] .

وعنه يقول ابن الوردي : «إمام في علوم الأدب، ما عمل مثل خطبه»[٢٢] .

ويقول الصفدي عنه : «رزق السعادة في خطبه، وكان رجلاً صالحاً»[٢٣] .

وقال عنه ابن كثير : «أكثر ديوانه الخطب الجهادية، ولم يسبق إلى مثل ديوانه هذا، ولا يلحق إلا أن يشاء الله شيئاً ؛ لأنه كان فصيحاً، بليغاً، ديناً، ورعاً»[٢٤] .

وفيه يقول ابن العماد الحنبلي: «خطيب الخطباء ... وفي خطبه دلالة على قوة علمه وسعته، وقوة قريحته، ... وهو الذي حث سيف الدولة بخطبه في الجهاد على التوسع فيه»[٢٥].

٤ – أخباره :

شحت المصادر التي ترجمت لابن نباتة بذكر أخبار هذا الخطيب المصقع، ولم يرد فيها سوى نتف قليلة عنه تدل على زهده وتقاه، وتبين عن ورعه وصلاحه .

ورد عنه أنه قال : لما عملت خطبة المنام، وخطبت بها يوم الجمعة، رأيت ليلة السبت في منامي كأني بظاهر ميافارقين عند الجبانة، فقلت : ما هذا الجمع ؟ فقال لي قائل : هذا النبي ﷺ ومعه أصحابه، فقصدت إليه لأسلم عليه، فلما دنوت منه التفت فرآني فقال : مرحباً يا خطيب الخطباء، كيف تقول ؟ وأومأ إلى القبور، قلت : لا يخبرون بما إليه آلوا، ولو قدروا على المقال لقالوا، قد شربوا من الموت كأساً مرة، ولم يفقدوا من أعمالهم ذرة، وآلى عليهم الدهر ألية برة، ألا يجعل لهم إلى دار الدنيا كرة، كأنهم لم يكونوا للعيون قرة، ولم يعدوا فيّ الأحياء مرة، أسكتهم والله الذي أنطقهم، وأبادهم الذي خلقهم، وسيجدهم كما أخلقهم، ويجمعهم كما فرقهم، يوم يعيد الله العالمين خلقاً جديداً، ويجعل الظالمين لنار جنهم وقوداً، يوم تكونون شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً – وأومأت عند قولي : تكونون شهداء على الناس إلى الصحابة، وبقولي : شهيداً إلى الرسول ﷺ – ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً﴾ [٢٦] فقال لي : أحسنت، ادن، فدنوت منه ﷺ، فأخذ وجهي وقبله، ثم تفل في فيّ وقال : وفقك الله، قال : فانتبهت من النوم وبي من السرور ما يجل عنه الوصف فأخبرت أهلي بما رأيت[٢٧] .

وروي عنه أنه بقي بعد هذا المنام ثلاثة أيام لا يطعم طعاماً ولا يشتهيه، ويوجد في فيه رائحة المسك، وأنه لم يعش إلا مدة يسيرة بعد هذا المنام، وأنه لما استيقظ من منامه كان على وجهه أثر نور وبهجة لم تكن قبل ذلك، وأنه قص رؤياه على الناس وقال: سماني رسول الله ﷺ خطيباً[٢٨].

وتذكر بعض مصادر ترجمته أن الوزير أبا القاسم المغربي قال : رأيت الخطيب ابن نباتة بعد موته، فقلت له : ما فعل الله بك ؟ فقال: دُفِع لي ورقة فيها سطران بالأحمر وهما:

قد كان أمن لك من قبل ذا
واليوم أضحى لك أمنان
والصفح لا يحسن عن محسن
وإنما يحسن عن جان

قال : فانتبهت من النوم وأنا أكررهما[٢٩] .

٥ – وفاته :

ذكر ابن حمدون في تذكرته أن ابن نباتة توفي وله دون الأربعين سنة[٣٠]، وقد نص من جاء بعده على تاريخ وفاته، فقد أشار ابن خلكان إلى أنها كانت سنة أربع وسبعين وثلاثمائة[٣١]، وتابعه على ذلك مجموعة من المؤرخين[٣٢] .

وبالنظر إلى تاريخ ولادته يظهر أنه عاش تسعاً وثلاثين سنة، وقد نص ابن تغري بردي على ذلك[٣٣] .

لكن الذهبي يشكك في ذلك، إذ يقول عنه «لم يل خطابة حلب إلا بعد موت سيف الدولة بن حمدان، وبلغنا أن عمره لم يبلغ الأربعين، بل عاش تسعاً وثلاثين سنة، ... ولم يصح ذلك فإنه ابتدأ بتصنيف خطبه في سنة إحدى وخمسين وثلاثمائة، وهو إذ ذاك خطيب مميز، وجالس المتنبي، فلعله عاش خمسين سنة أو أكثر»[٣٤] .

ويذكر الصفدي أن وفاته كانت قبل السبعين وثلاثمائة[٣٥].

أما مكان الوفاة فقد أجمعت مصادر ترجمته على أنه توفي بميافارقين[٣٦]، وقد وهم الزركلي عندما ذكر أنه توفي بحلب[٣٧]، إذ ليس هناك من المؤرخين من أشار إلى ذلك .

أولاً – الرؤية الوصفية :

تجدر الإشارة – قبل البدء في مشاهدة الجوانب المتنوعة في موضوعات خطب ابن نباتة الفارقي – إلى ثلاثة أمور :

الأمر الأول يتعلق بإيثاري استعمال (الرؤية الوصفية) عنواناً لهذا المبحث بدل (الدراسة الموضوعية) التي تشيع لدى كثير من النقاد عند معالجة عمل أدبي، إذ

من المعتاد قبل أن يدلف الباحث إلى الدراسة الفنية أن يصدر بحثه بما يسمى (الدراسة الموضوعية)، وفيه يكشف عن الموضوعات التي يضمها العمل الذي يعالجه، وعادة ما تشتمل تلك المعالجة - إن صحت التسمية - على عرض وصفي لجوانب الأثر الأدبي الذي سيدرسه، وأحسب أن إطلاق لفظة الدراسة على عمل من هذا النوع يتجافى عن الدقة، ويسبغ على المبحث سمة لا يستحقها، ومن هنا آثرت استخدام هذا العنوان .

الأمر الثاني لائط بالمضمون الفكري الذي تضمه هذه الخطب، فالبحث لن يسعى إلى إثبات سمو الأفكار وإلى رصد جوانب الفضيلة التي تشتمل عليها، ذلك أن هذا أمر متحقق في فن الخطابة منذ نشأته، إذ هو فن يتسم بالرسمية، ويحفه الاحترام، فلا يضم إلا فضائل القول ومحاسن الحديث، بخلاف الشعر الذي ربما دعا إلى رذيلة باشتماله على غزل فاحش، أو دعوة إلى شرب خمر، أو نحو ذلك مما لا يستغرب من الشاعر، ولا يستنكره الناس، لأنه عندهم تقليد سار عليه الشعر مذ طفولته .

أما الخطابة فهي منذ العصر الجاهلي تحرص على «إظهار القيم النبيلة، والأخلاق الحميدة، والسير الشريفة، وتوجيه الأمة إلى الكمال، والحياة إلى الأفضل، من خلال النصوص التي تعتبر دليلاً شامخاً على نبل الأمة، وبرهاناً ساطعاً على سلوكها، وشعلة منيرة أضاءت للأجيال مسالكهم»[٣٨].

إذا كان هذا النبل متحققاً في هذا الفن منذ أقدم العصور فإن البحث عن سمو الأفكار في خطب جاءت بعد الإسلام لتلقى في مناسبات دينية يعد محاولة لتحقيق متحقق، وطموحاً لتحصيل حاصل، والباحث عن ذلك يشبه بالضبط من ينقب عن الوجود الإسلامي في القرآن الكريم، أو في السنة النبوية .

أما الأمر الثالث فله ارتباط بطريقة عرض هذا المبحث، فالمعتاد في مثل التوصيف الذي يسبق الدراسة الفنية والذي يسمى (الدراسة الموضوعية) أن يتم تقسيم الأثر الأدبي المعالَج إلى موضوعات تفرضها طبيعة البحث العلمي المتسم عادة بمحاولة تقسيم النصوص لتسهيل التعامل معها، لكن هذا المبحث سيصدف عن مثل هذا التناول منطلقاً من تقسيم رأى الخطيب ابن نباتة أن يكون عليه كتابه، وهذا التقسيم بالإضافة إلى مراعاته للموضوعية (قسيمة الفنية لا المقابلة للذاتية) يضم حساً شكلياً، إذ الموضوعات ربما تكررت عنده في أكثر من تقسيم من تقسيماته، وأحسب أن هذا مسوغ آخر يرشح اختياري للرؤية الوصفية على الدراسة الموضوعية .

سيحاول هذا المبحث المقاربة مع موضوعات خطب ابن نباتة وفق التقسيم التالي :

١ - خطب المعاد .

٢ - خطب المواقيت .

٣ - خطب الجهاد .

٤ - الخطب المختصرة .

٥ - الفصول .

٦ - الخطب الثواني .

٧ - فصول الأدعية .

٨ - لواحق خطب المواقيت .

وقبل أن ألج إلى التعرف إلى مواد تلك الخطب التي يضمها هذا التقسيم أود الإشارة إلى وهم وقع فيه شوقي ضيف، حيث ظن أن عدد خطب ابن نباتة تساوي عدد أسابيع السنة، وهذا غير صحيح، ولعل السرعة في إطلاق الأحكام هي التي قادته إلى هذا الرأي، يقول عن خطب ابن نباتة : «وقد جعلها على عدد جُمَع السنة، ابتداء من شهر المحرم إلى نهاية شهر ذي

الحجة»[39]، والحق أن تلك الخطب المجموعة تفوق عدد أسابيع السنة بكثير، فإذا كان عدد الأسابيع في السنة هو ثمانية وأربعون أسبوعاً، فإن تلك الخطب بأجناسها المختلفة قد وصلت إلى أربع وأربعين ومائة .

وربما عاد السبب في هذا الوهم من شوقي ضيف إلى اعتماده على عبارة موهمة جاءت عند عمر فروخ يقول فيها : «وكان ابن نباتة يستمد موضوعات الخطب من الزمن الجاري، فلكل أسبوع من كل شهر خطبة خاصة، ولكل مناسبة دينية كعاشوراء ورمضان وعيد الفطر وعيد الأضحى خطبة»[40] فهذه الجَمل وإن لم تشر إلى العدد لكن من يراها دون أن يقف على خطب ابن نباتة قد يقع في الاستنتاج الخاطئ .

بعد ذلك أصل إلى صلب الموضوع بادئاً بما بدأ ابن نباتة به:

١ – خطب المعاد :

وتبلغ ثمانيَ وثلاثين خطبة، وفيها استفاضة في الحديث عن الموت والمعاد، وتشتمل على ذكر لتصرف الزمان بأهله، وعلى ذم للدنيا، وتضم حديثاً عن القيامة وأهوالها، مذكرة بما أعده الله لمن عصاه، وما هيأه لمن أطاعه، وفي أثناء ذلك دعوة للعمل الصالح، ونهي عن ارتكاب المحرمات، وحض على التقوى والزهد في الدنيا .

ولتعلق ابن نباتة بهذا اللون من الوعظ صدر به خطبه، يقول في الخطبة الأولى من خطبه واعظاً : «أيها الناس، ما هذه السنة وأنتم منتبهون، وما هذه الحيرة وأنتم صاحون، وما هذه الطمأنينة وأنتم مطلوبون، وما هذه الإقامة وأنتم راحلون، أما آن لأهل الرقدة أن يستيقظوا، أما حان لأبناء الغفلة أن يتعظوا، أما أزف لأولي العقول أن يتفكروا، أما ردف لذوي التجارب أن يعتبروا، لقد صدقكم الموت عن الخبر، وأراكم تصاريف الغير، وآذنكم بالرحيل، وقدمكم جيلاً بعد جيل، فما للقلوب لا تتصدع خشوعاً، وما للعيون لا تجري بدل الدموع نجيعاً[41]، أتحسبون أن الأمر صغير، أم تتوهمون أن الخطب يسير، كلا لتَردنَّ الصمَّة الصماء[42]، والداهية الدهياء[43] المكفهرة[44] الشنعاء، المدلهمة السوداء، التي لا ينادى وليدها، ولا تكذب شهودها، فكأنكم بالساعة قد رجف زلزالها، واشمخر[45] وبالها، واقمطر[46] نكالها، وترادفت أهوالها، وتحققت أوجالها[47]، وكشف العيان أحوالها، وقال الإنسان مالها، فيومئذ تبرز المخبآت، وتبدو المكتمات، وتظهر الفضائح، وتكثر الجوائح[48]، وترعد الجوانح، وتشهد الجوارح، وتبعثر الضرائح، وتعدد القبائح، فيا خجل المقصرين من التوبيخ في محفل القيامة، ويا حيرة أولي التفريط من زلازل يوم الطامة، ويا سوء منقلب الظالمين عند حلول الندامة، ويا حسرة الهالكين، إذا عاينوا أهل السلامة، ويا هوان المتكبرين إذا حرموا دار الكرامة، وهنالك سُدَّت على الهاربين مذاهب السبل، وضاقت على المحتالين وجوه الحيل، وخابت من الآملين أضاليل الأمل، وحصَّل كل من قدم من العمل، جعلنا الله وإياكم ممن أحسن الارتياد لنفسه، واستعبر باكياً على ما فرط في يومه وأمسه، وأطاب الزاد لحول رمسه[49]»[50] .

وربما أشار في تلك الخطب إلى وفاة أحد الأعيان لأخذ العبرة، كقوله في خطبته التي يعرض فيها بوفاة أخت سيف الدولة : «الحمد لله الذي اختار البقاء لنفسه وارتضاه، وقدر الفناء على خلقه وقضاه، ... أيها الناس البسوا للدنيا جنن[51] الاجتناب واسلكوا فيها سبيل أولي الألباب، فقد صرحت لكم بعبرها فما كنت، ولوحت إليكم بغيرها فما ونت، وأرتكم من فتكها بالأمم من قبلكم، ولثاً[52] وأنموذجاً يدلكم علي فعلها بكم، فاكتفوا فيها بالعيان من الأثر، وكونوا من تمويهها على أشد الحذر،

واجعلوا سير الأولين فيها أسماركم، وأجيلوا فيما صنع الدهر بهم أفكاركم، أين أهل المعاقل المنيعة، والمنازل الرفيعة، والأبنية العجيبة، والأفنية الرحيبة، والوجوه المنعمة، والمحالّ المعظمة، أين من أطال الأمل، واستعذب المهَل، وأرجأ العمل، واستكثر العبيد والخول، أين المحجوب المُمَنَّع، وأين المهيب الممتع، وأين الذكي الأورع، وأين الفصيح المِصْقع، أين من كان فيه منظر ومسمع، وخلال الشرف أجمع، مطرتهم من الشتات سحب هُمَّع، وحامت عليهم من الآفات طير وُقَّع، وعصفت بهم من الممات ريح زعزع، وابتلعتهم الفلاة البلقع[٥٣]، ... فهل من معتبر غان بالمشاهدة عن الإخبار، أو مفتكر في سوء عواقب هذه الدار، قبل أن يكون الناظر منظوراً، والقابر مقبوراً»[٥٤].

وأحياناً يبشر فيها بقدوم وال يعين على الطاعة ويدفع إلى الشكر، يقول: «الحمد لله شكراً على ما أوزعنا عليه شكراً، وصبرا وتسليماً لما ألهمنا عليه صبراً، الذي أسبل علينا من كفايته سترا، وأبدلنا من بعد عسر يسراً، ... فكونوا عباد الله بآلاء الله عارفين، ولنعمائه واصفين، فإنه ما أفل نجم طلع رقيبه، وفُقد قرم قام نسيبه، فاسألوا الله حراسة بحر منحكم جواهره، ووكل برعايتكم قلبه وناظره، الأمير فلان بن فلان ذي النوال الجزل، والمقال الفضل»[٥٥].

وتعرف بعض خطبه بأسماء معينة، مثل الخطبة الثامنة والعشرين - حسب ترتيب الخطب - فهي تسمى خطبة المنام، وقد سبق أن أشرنا عند الحديث عن حياة الشاعر إلى أن ابن نباتة ذكر أنه رأى الرسول ﷺ في منامه، بعد أن خطب بها ؛ ولذلك سميت بهذا الاسم.

ومن ذلك الخطبة التاسعة والعشرون - حسب ترتيب الخطب - فهي تعرف بالصوفية، وفيها وصف للزاهدين الذين يدعو ابن نباتة سامعيه أن يسيروا على نهجهم، ومن صفاتهم قوله: «تسمع لقلوبهم من خوف مأمولهم وجيباً، ويبدي لهم اشتياقهم إليه زفيراً ونحيباً، قد جعلوا ذكره لهم من الدنيا نصيباً، ولم يجدوا لدائهم سواه طبيباً، رمقوا العواقب بالبصائر البصيرة، وخرقوا الغياهب بالأفكار المنيرة، وجنبوا الجنوب مهاد الفرش الوثيرة، وغسلوا الذنوب بفيض الأدمع الغزيرة، وعقلوا القلوب بعُقَل الصبر المريرة، وآثروا المحبوب بنفائس الأنفس الأثيرة، وصححوا معاملة عالم الإعلان والسريرة»[٥٦].

ولعل أبرز ما يلحظ على هذا القسم من خطبه هو حرصه عند الحديث عن الموت والمعاد على تكرار المعنى بألفاظ مختلفة، وهذه السمة وإن كانت توجد عنده في سائر خطبه، لكنها في هذا القسم أبين وأوضح، فمن ذلك قوله: «ما هذه السنة وأنتم منتبهون، وما هذه الحيرة وأنتم صاحون، وما هذه الطمأنينة وأنتم مطلوبون، وما هذه الإقامة وأنتم راحلون، أما آن لأهل الرقدة أن يستيقظوا، أما حان لأبناء الغفلة أن يتعظوا، أما أزف لأولي العقول أن يتفكروا، أما ردف لذوي التجارب أن يعتبروا»[٥٧].

وربما بدت عنده في هذا القسم بعض المعاني التي ينبغي أخذ الحيطة قبل نسبتها إلى الله عز وجل، كقوله: «الحمد لله قاصم الملوك والجبابرة، وهادم المعاقل والحصون العامرة»[٥٨] فأن يثنى على الله - عز وجل - بأنه يهدم المعاقل والحصون العامرة، دون أن تنسب هذه المعاقل وتلك الحصون إلى أهل الظلم أو الإجرام، أظن أن في ذلك سوء أدب مع الحق - تبارك وتعالى -.

٢ - خطب المواقيت :

وعددها أربع عشرة خطبة، وهي خطب قصد ابن نباتة إلى جعلها أنموذجاً يحتذى عند مرور بعض المناسبات الدينية، وقد خص ابن نباتة بعض المناسبات الدينية بأكثر من خطبة، في حين لم تأخذ مناسبات أخرى سوى خطبة واحدة.

وقد جعل الخطبة الأولى من هذا القسم عن استقبال السنة وعن فضل يوم عاشوراء، وفي ذلك يقول : «اعلموا عباد الله أن ممر الليالي والأيام، ومكرّ الشهور والأعوام، ينذران بانقضاب الأعمار، ويؤذنان بخراب الديار، ويقربان البعيد، ويبليان الجديد، ويهدمان المشيد، ويوهنان الجليد، حكمة جارية بمقدار، وسنة ماضية على اقتدار، وقدرة تعجز عن تحصيلها فطن أولي الأفكار، فاعتبروا يا أولي البصائر والأبصار، وقد مضت رحمكم الله من مدة الحياة، سنة تدني إلى ورود الوفاة، فالزكي من استودعها صالحاً من عمله، والشقي من شهدت عليه بقبيح زلله، وإن امرأً تنقضي بالبطالة أوقاته، وتمضي في الجهالة ساعاته، لجدير أن يطول على نفسه بكاؤه، ويدوم في طلب التخلص عناؤه، ويكثر ممن أمهله حياؤه، ما دام يسعده بقاؤه، وقد استقبلتم رحمكم الله عاماً جديداً، وافتتحتم شهراً محرماً حميداً، أول شهور السنة في التحريم، وأحقها بالتفضيل والتقديم، خصه الله في اليوم العاشر، بثواب جزيل وافر، أتت بفضله الأنبياء، وصامه الصالحون والعلماء، فمن رغب في اغتنامه، وقدم النية في صيامه، فليصم التاسع والعاشر استظهاراً، ولا تعرضوا عن تعظيمه استكباراً»(٥٩) .

أما الخطبة التي تليها ففيها حديث عن وفاة الرسول ﷺ، وقد أعقبها بخطبة أشار فيها - أيضاً - إلى وفاة الرسول ﷺ، ويخطب بهما في شهر ربيع الأول .

وعلى أنه لم يصح في فضل شهر رجب حديث واحد، لكن ابن نباتة قد خص هذا الشهر بأربع من خطبه، ذكر فيها منزلته بين الشهور، وفضله على سائر الدهور، دون أن يستشهد بآية تدل على هذا الفضل، أو بحديث يؤكد تلك المنزلة، يقول : «هذا شهر التوبة والندم، والصدقة وصلة الرحم، وأحد الأشهر الحرم، المنقذة من حلول النقم، شهر منزلته عظيمه، وحرمته قديمة، الحسنة فيه جزيل أجرها، والسيئة فيه ثقيل وزرها، فهل من باك على زلل، أو مقلع عن قبيح عمل، أو مقصر من طول أمل، أو منطو من الله على خوف ووجل، في شهر لا يرد فيه سائل، ولا يحرم فيه آمل، ولا يخيب فه عامل، ولا يمهل فيه غافل»(٦٠) .

وقد جاءت الخطبة الرابعة عن شهر رجب مقسومة بينه وبين شهر شعبان، إذ هي في وداع الأول واستقبال الثاني، وقد تلاها بخطبتين كان موضوع الأولى منهما عن دخول شعبان والثانية عن وداعه، وهو في كل تلك الخطب يدعو إلى اغتنام الأوقات بالعمل الصالح، ويحث على ترك المعاصي والسيئات .

ويؤكد على فضيلة ليلة النصف من شعبان مسايراً ما شاع عند العامة من أحاديث في فضلها، يقول : «أطنب رسول الله ﷺ في وصفه، ورغب في قيام ليلة نصفه، فتأهبوا رحمكم الله لقصدها، وشمروا لاغتنام وردها، فكم طليق فيها من وثاق الذنوب، وحقيق بنيل كل مطلوب، ينزل الله فيها صكاك الأرزاق، ويعجل ببركتها فكاك الأعناق، فاهربوا فيها عباد الله من سوء الاجتراح، واطلبوا منه حوائجكم تظفروا بالنجاح»(٦١) .

ويفرد لشهر رمضان ثلاثاً من خطبه، إحداها في استقباله، والثانية في فضله، والثالثة في وداعه، وفي تلك الخطب يعرض لفضله، ومنزلته بين الشهور داعياً إلى عدم التسويف في التوبة، وإلى المبادرة بعمل الخير، وفي أثناء الحديث يرد ذكر لليلة القدر فيشير إلى عظمتها، حاثاً على تحريها واغتنامها .

وفي ختام هذا القسم خطبتان عن فضل أيام عشر ذي الحجة، تشملان حديثاً عن يوم عرفة وفضله، ويوم النحر ومنزلته، ولم ينس ابن نباتة إيراد قصة نبي الله إبراهيم الذي ابتلي في هذه العشر بذبح ابنه فلبى نداء ربه ولم يتوان في ذلك، كما تضم هاتان الخطبتان كلاماً

على الأضحية ومشروعيتها، ودعوة إلى حج البيت الحرام طلبا لنيل رضا الله عز وجل.

ولهذه الخطب لواحق جعلها المؤلف في نهاية كتابه، ورغبة منا في احترام ترتيب المؤلف لم أضمها إلى هذا المبحث، وأحسب أن جعل خطب المواقيت في قسمين منفصلين ليس له ما يسوغه، وسنعرض لذلك عند تناول لواحق خطب المواقيت .

ومما يؤخذ على ابن نباتة في هذا القسم من خطبه قوله عن الرسول ﷺ : «فلم يزل ﷺ بزناد الإيمان قادحاً، ولعُبَّاد الأوثان مكافحاً، وفيَ غمرات الأهوال سابحاً، ولله في كل الأحوال مناصحاً، حتى صار جذع الإيمان قارحاً، وأصبح نهج اليقين واضحاً، وعاد فاسد الشرع صالحاً، صلى الله عليه وعلى آله ما زجر عائف سانحاً أو بارحاً»[٦٢]، إذ من المعلوم أن زجر الطير ضرب من الكهانة، وقد جاء الشرع بتحريم ذلك، فربط الصلاة على النبي ﷺ بأمر محرم مما لا يسوغ، وهو يشبه في عدم تقبله أن تقول : اللهم صل على محمد ما سرق السارقون، وما أذنب المجرمون ! .

٣ - خطب الجهاديات :

وهي ثماني عشرة خطبة، يحض فيها على قتال العدو، وينادي بعدم الاستكانة إلى الدعة والراحة، ويذكر أجر المجاهدين في سبيل الله، وما أعد الله لهم من المغفرة والرحمة، داعياً إلى مبادرة العدو قبل أن يبادر، ومباغتته قبل أن يغزو، ذاماً المتولين يوم الزحف، والمنشغلين بجمع الغنائم والأسلاب .

ويؤكد في خطبه على تصحيح النية قبل الخروج إلى الجهاد، حاثاً على ترك المعاصي والموبقات التي توجب غضب الرب، وتؤدي إلى الذلة والهزيمة، يقول في الخطبة الثانية من هذا القسم : «أيها الناس إن الله أيَّه[٦٣] بكم فهم أنتم سامعون، وندبكم إلى طاعته فهل أنتم إليها مسارعون، وزجركم عن معصيته فهل أنتم راجعون، وساومكم بنفوسكم فهل لها أنتم بائعون، وجعل أثمانها جنته فهل أنتم إليها نازعون، وأنبت لكم من الحبة سبعمائة فهل أنتم زارعون، وأوعد من خالفه عذاب جهنم فما أنتم صانعون، وهو القائل سبحانه : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[٦٤] الآيتين . ألا وإن الجهاد كنز وفَّر الله منه أقسامكم، وحرز طهَّر الله به أجسامكم، وعزٌّ أظهر الله به إسلامكم، فإن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم، فانفروا رحمكم الله جميعاً وثُبات[٦٥]، وشنوا على العدو الغارات، وتمسكوا بعصم الأقدام ومعاقل الثبات، وأخلصوا في جهاد عدوكم النيات، فإنه والله ما غزي قوم في عقر دارهم إلا ذلوا، ولا قعدوا عن صون ذمارهم إلا اضمحلوا، واعلموا أنه لا يصلح الجهاد بغير اجتهاد، كما لا يصلح السفر بغير زاد، فقدموا مجاهدة القلوب، قبل مشاهدة الحروب، ومغالبة الأهواء، قبل محاربة الأعداء، وبادروا بإصلاح السرائر، فإنها من أنفس العدد والذخائر، وليدفع القاعدون عن المجاهدين بالدعاء، ومن لم يستطع منكم سبيلاً إلى اللقاء، فاعتاضوا من حياة لا بد من فنائها، بالحياة التي لا ريب في بقائها، وكونوا ممن أطاع الله وشمر في مرضاته، وسابقوا بالجهاد إلى تملك جناته، فإن للجنة بأباً حدوده تطهير الأعمال، وتشييده إنفاق الأموال، وساحته زحف الرجال على الرجال»[٦٦] .

ولم تقتصر خطب ابن نباتة الجهادية على ذلك فحسب بل كان يواكب الأحداث، ويتابع ما يجري في بلد الإسلام عن كثب، ثم لا يلبث أن يودع ذلك خطبه، فعندما نما إلى علمه أن أناساً فروا من الزحف خصهم بخطبة من خطبه هي الثالثة من هذا القسم، ولما وقع بالناس خوف

شديد نتيجة استيلاء العدو على حلب أنشأ في ذلك خطبتين يُسَكِّن فيهما الاضطراب الذي حل بالناس، ويحاول تهدئة الروع الذي نزل بهم .

وعندما تحصنت ميافارقين بحفر الخندق حولها كتب خطبة يذكر فيها نعمة الأمن التي عمت، مشيراً إلى أن ذلك التحصين الناتج عن الاقتداء بسنة الرسول ﷺ يستوجب شكر الله والاعتراف بنعمه، يقول : «أو ما ترون نتائج التضافر على الطاعة، وترك سلوك سبل الإضاعة، كيف أدت بكم إلى إصلاح شانكم، وتحصين أوطانكم، والسباق إلى الفوائد، وما يؤذن بمحمود العوائد، والرجوع إلى الله فيما أمر، والنزوع عما نهى عنه وزجر، والتيقظ لإيثار الحقائق في سبيله، والاقتداء في حفر الخندق بسنة رسوله، جُنَّة واقية من المحذور، ومنَّة باقية على الدهور، وذلك من فضل الله عليكم فاشكروه، واعترفوا بنعمه ولا تكفروه»(٦٧) .

وربما كتب مقدمة لخطبته التي عملها يشير فيها إلى السبب الداعي إلى كتابتها، وذلك كما في الخطبة الثامنة من هذا القسم، يقول بعد أن ذكر موافاة نفير خراسان : «وكانت موافاتهم يوم الإثنين لعشر خلون من ذي القعدة سنة اثنتين وخمسين وثلاثمائة، وذلك لليلة بقيت من تشرين الآخر، وعدتهم ثمانية آلاف فارس وراجل في أحسن ما يكون من العدة والجهازات والبنود التي كان فيها ما طوله خمسون ذراعاً في الهواء والبخت والعدد التي لم ير مثلها، ونزل بعد ذلك في يوم الأربعاء لاثنتي عشرة ليلة خلت من هذا الشهر، وهو أول كانون الأول، وجاء فتى الأمير سيف الدولة في أربعة آلاف فارس وراجل في أعظم ما يكون من العدة، وذلك على فاقة شديدة من أهل ديار بكر إلى الغوث، وإشفاق شديد وخوف من العدو خذله الله، فعملت هذه الخطبة أذكر فيها موافاة الجيوش من الشرق والغرب، وأذكر نعم الله في ذلك وأحرض على الجهاد وخطبت بها في يوم الجمعة لأربع عشرة خلت من ذي القعدة سنة اثنتين وخمسين ثلاثمائة»(٦٨).

ولما قتل الدمستق في وطنه من قبل أنصاره بعد أن أعيا المسلمين وثَّق ابن نباتة ذلك، مضمناً خطبته الأخيرة من هذا القسم حديثاً عن هلاكه، لكن التهويل ربما أطل برأسه أثناء حديث ابن نباتة عن هذا الحدث فهو يقول عن الدمستق مبالغاً : «وانظروا صنيع الله بعدوكم طاغية الروم، الذي ضلت في انتظام أحواله ثواقب الأحلام والفهوم، حين دوخ الأقطار، وفتح الأمصار، وخرب الديار، وجاوز في بغيه وعتوه المقدار، حتى إذا ارتعدت منه فرائص الإسلام، وخامت(٦٩) عنه جيوش الإقدام، وطاشت لفرقها عقول الأنام، وتقاعست عن الفتك به صروف الليالي والأيام، ووقع اليأس من دفعه، لطف الله الكريم بلطيف صنعه، وأتاه من مأمنه، وقتله بأنصاره في وطنه»(٧٠) .

فقد جعل ابن نباتة للإسلام فرائص ترتعد من خوف الدمستق، وفي هذا غلو وإغراق في القول، بالإضافة إلى كونه يضم شيئاً من سوء الأدب مع الدين .

٤ - الخطب المختصرة :

ويحوي ست عشرة خطبة، متنوعة الموضوعات، أي أن الموضوع فيها ليس هو المعيار الذي استند إليه ابن نباتة في خصها بقسم مستقل، بل كان الاختصار فيها هو المعول عليه، وإن كان المؤلف لم يستطع أن يضبط هذا المنهج، حيث لم يلتزمه إلا في إحدى عشرة خطبة فحسب، أما الخطب الخمس الأخيرة من هذا القسم فقد جاءت كسائر خطبه في الطول، بل إن بعضها تجاوز الطول المعتاد الذي يسير عليه، وذلك كالخطبة الثالثة عشرة من هذا القسم التي كان موضوعها عن الاستسقاء فقد أطال فيها طولاً لم يصنعه في سائر خطب الكتاب .

جاءت إحدى عشرة خطبة صدر بها هذا القسم وعظية تدور حول التوبة والاستعداد للآخرة بالإضافة إلى اشتمالها على شيء من الترهيب والترغيب الذي درج عليه ابن نباتة، ولم يضف فيها جديداً على ما سبق سوى تقديم الخطبة بشكل مختصر.

وأحسب أن ابن نباتة يهدف من خلال هذه الخطب إلى إظهار براعته في الاختصار الذي بدا مخلاً، بحيث لا تصلح تلك الخطب لأن تكون أنموذجاً يحتذى لقصرها الشديد، فهي أشبه بالحكم المركزة التي لا تتناسب مع طبيعة الخطابة المتسمة بالإطناب عند عرض ما يرغب الخطيب في إيصاله، ومن نماذج تلك الخطب قوله : «الحمد لله أولى محمود، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له أحق معبود، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله أكرم مولود، صلى الله عليه وعلى آله صلاة مقرونة بالخلود، وسلم تسليماً، أيها الناس إن الموت باب لا بد من دخوله، وضيف لا ريب في نزوله، وهاجم لا مدفع لحلوله، وصارم لا مطمع في كلوله، فرحم الله امرأً أخذ من صحته لسقمه، ومن شبيبته لهرمه، ومن قوته لأله، ومن جدته لعدمه، ومن مقامه لرحلته، ومن دنياه لآخرته، وكان في طاعة ربه من المبرزين، فإن ما توعدون لآت وما أنتم بمعجزين، وأستغفر الله العظيم»[٧١].

هذه خطبة كاملة من تلك الخطب التي خصها ابن نباتة بهذا القسم، والاختصار المخل فيها بين، وإخال أن ذلك هو الذي دفعه إلى عدم التزام هذا المنهج في سائر خطب هذا القسم، حيث خرمه بتغير الموضوع وبكسر الإيجاز .

بعد ذلك كتب المؤلف الخطبة التالية لتلك الخطب عن احتباس المطر، ثم أعقبها بخطبة طويلة ذكر أنها يخطب بها في الاستسقاء، وفي ذيلها خطبة أخرى عن الموضوع ذاته، ثم تلا ذلك بخطبة يخطب بها عن تفضل الله على عباده بالغيب، ومما قاله فيها : «عباد الله كيف رأيتم من الله حسن الإجابة، حين أخلصتم إليه تحقيق الإنابة، أم كيف وجدتم غب الاعتصام بحبله، وعاقبة التعرض لفضله، أولم تجدوه للدعاء سامعاً، وبموفور العطاء واسعاً، أو لم تكن الأرض هامدة، حين كانت العيون جامدة، حتى إذا وجلت القلوب فخشعت، وهملت العيون فدمعت، واشرأبت النفوس فطمعت، واستكانت الخليقة فخضعت، وكان الله عز جلاله منتجع الطالب، ومفزع اللهيف الهارب، أجراكم من إحسانه على المعهود، ومد عليكم سرادق المعروف والجود، وفتح لكم من نعمته أبواباً، وأنشأ لكم من رحمته سحاباً، كونها في غيب علمه، وأتقنها بلطفه وحكمه، وأمرها فارتفعت مستقلة، ونشرها فاتسعت مظلة، وساقها بالرياح سوقاً حثيثاً، وأوقرها من البركة غيثاً مغيثاً، حتى إذا عمت الآفاق طولاً وعرضاً، وركضها الملك الموكل بها ركضاً، وتمخضت تخمض الحامل، وكادت تنالها بسطة المتناول، أنطق الله بالبشارة رعدها، وحقق بالنضارة وعدها، وأطلع بالعمارة سعدها، وأوسع في كل ربوة وقرارة رفدها، وأصلت في أرجائها سيوف البرق، وأسبل من خلالها سجال الودق، وأمر الرياح فمرت[٧٢] أخلافها[٧٣]، وزم بالسلامة أوساطها وأطرافها، فطبق بصوبها السهل والجبل، وحقق بغيثها السؤل والأمل، فأصبحت الوهاد مترعة، والبلاد ممرعة، والروض ناضرا، والخلق متباشرا»[٧٤] .

ويختم ابن نباتة هذا القسم بخطبة عن كسوف الشمس يقدمها أنموذجاً يحتذى إذا ما حدثت هذه الظاهرة الكونية العظيمة، وفيها حث على التوبة والاستغفار، وربط معتاد بين وقوعها ومعاصي العباد .

٥ – الفصول :

ويتكون هذا القسم من سبعة فصول، ولم يظهر لي سبب في إفرادها عن سائر الأقسام، بل لم تكن خالصة

في موضوع واحد، وإن كان غالبها يدور حول تولي السلطة والتهنئة بالانتصار على الأعداء، والحث على شكر الله تعالى على نعمه بتحقيق الأمن والطمأنينة لعباده .

عقد ابن نباتة الخطبة الأولى من هذه الفصول في قدوم وال لم يسمه، وكأنه يقدم هذه الخطبة أنموذجاً للتهنئة بتولي أي أمير، يقول : «فأذيعوا رحمكم الله شكر الله على نعمه، واستدفعوا بطاعته وبيل نقمه، فإنه قد جاد عليكم من قبل أن تسألوه، وحقق لكم ما لم تؤملوه وكشف عنكم ظلماء المخافة، وكفاكم دهياء كل آفة، بقدوم ليث العرين، وسيف الحق المبين، وشهاب الحرب الزبون[٧٥]، وخائض غمرات المنون، والذائد عن حوزة الدين، وصاحب الفتوح المشهورة، والوقائع المذكورة، واللواء المعقود، والبلاء المحمود، والبأس المشهود، في الكفرة أهل الجحود، الأمير أبي فلان نعمة الله على أوليائه السابغة، ونقمته في أعدائه البالغة، الذي أعزكم الله به بعد الذلة، وكثركم به من القلة، وآمن به السبل، وأزاح به العلل، وسكن به القلوب، ونفس الكروب، وأزال المرهوب، فقيدوا عباد الله هذه النعم قبل أن تُسلبوها، وحافظوا على سياستها قبل أن تطلبوها»[٧٦] .

ويصرح في الخطبة التي تليها والتي كانت عن مناسبة انتصار باسم المنتصر ذاكراً ما قام به من بطولات في سبيل دحر العدو وحماية بيضة الدين، ويصنع هذا الصنيع أيضاً في الخطبة الثالثة من هذه الفصول، حيث يثني على سيف الدولة الحمداني مبيناً جهوده في إخماد الفتن وحراسة دولة الإسلام .

وتدور الخطبة الرابعة حول الدعوة إلى شكر الله تعالى على ما أفاء به من نعم، حيث منَّ على المسلمين باسترجاع ما سلب من الحصون والمعاقل .

ويعقد الخطبة الخامسة من هذا القسم مؤكدا على مكانة سيف الدولة، وفيها مديح ودعاء له بالنصر والتأييد، يقول : «واعلموا أن أظهر نعمة جللتموها، وأكبر منة خولتموها، قدوم معزكم بعد الإذلال، ورافعكم بعد الإخمال، ومنقذكم من الفزع، ومؤمنكم بعد الجزع، الباسط فيكم العدل، المتابع لكم البذل، شهاب الله الثاقب، وحزبه الغالب، وحقه الواجب، وعذابه على أعدائه الواصب، وخائض لجج الأهوال، وقابض مهج الأبطال، وفارض نهج الآمال، وماخض رهج الأبطال، ذي الوجه الأزهر، والنسب الأطهر، واللقب الأشهر، والمحل الأكبر، والحسام المِقْضَب[٧٧]، والهمام المِحْرَب[٧٨]، والغمام المسبل، والضرغام المشبل[٧٩] سيف الله المؤيد بالنصر، وحجره الدامغ أهل العناد والغدر، وبأسه المهلك أولي الفساد والكفر، وقطب رحى الجهاد في البر والبحر، الأمير سيف الدولة أبي الحسن ذي الراية المنصورة، والمواقف المذكورة»[٨٠].

والحق أن ابن نباتة هنا قد حول الخطبة إلى قصيدة مديح تحوي مبالغات، ليست خطب الجمعة محلاً لها، أقول هذا الكلام مع تقديري للإنجازات والفتوحات التي تحققت للمسلمين في عهد سيف الدولة الحمداني .

ويجيء الفصل السادس من هذا القسم موجزاً جداً، فهو لا يتجاوز أربعة أسطر، وهو بعيد عن الموضوعات التي طرقها ابن نباتة فيه، إذ هو بالقسم السالف ألصق، ولا أعلم سبباً لإقحامه هنا، يقول فيه ما نصه : «أيها الناس أغفلتم جلاء القلوب بمداوس الأفكار حتى جَربت، وأهملتم بناء الأعمال في تقاعس الأعمار حتى خربت، وأرسلتم ذلل الأهواء في حلبة الشهوات حتى صعبت، وأطلتم آمال النفوس في ما أعجزها إدراكه حتى عطبت، واضطجعتم في مهاد الغفلة حتى استحوذت عليكم فغلبت»[٨١] .

وفي ختام هذا القسم فصول في الصلاة على النبي ﷺ، وقد جاءت على شكل عبارات مسجوعة يجرب فيها ابن نباتة أدواته البيانية وقدراته الإفصاحية، تأمل ذلك في قوله :

«اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ما تقلقل فلك في دورانه
اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ما رمق طرف بإنسانه

* * *

اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ما أقام عسيب
اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ما حنت إلى أولادها النيب

* * *

اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ما تمزقت الدياجر عن صباحها
اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ما قامت الأجسام بأرواحها»(٨٢)

٦ - الخطب الثواني :

وعددها أربع، وفيها يقدم ابن نباتة نماذج لما ينبغي أن يقال في الخطبة الثانية، وتدور الخطب التي أنشأها في هذا القسم حول حمد الله والصلاة السلام على رسوله، وتتضمن دعاء للمسلين بالنصر والتمكين، ودعوة لأمير المسلمين وإمامهم.

ولا يتناول ابن نباتة في الخطبة الثانية موضوعاً يعالجه، وإنما يقتصر في خطبه التي كتبها على ما ذكرت، وبذلك يبدو لنا أن الرجل يرى الخطبة الثانية أشبه بالخاتمة للخطبة الأولى ؛ لأنه لا يستكمل فيها موضوعاً، ولا يطرح قضية، إذ ذلك - في رأيه - محله الخطبة الأولى .

ومن خطبه الثواني قوله : «الحمد لله اتباعاً لما أمر، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له إرغاماً لمن كفر، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله سيد البشر، صلى الله عليه وعلى آله ما اتصلت عين بنظر، إن الله أمركم بأمر بدأ فيه بنفسه وثنى بملائكته وأيَّه بالمؤمنين من عباده، فقال عز من قائل : ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾(٨٣) اللهم كما شرفته بالمقام المحمود، وخصصته بالحوض المورود، فكن له كفيلاً بنهاية المزيد، وتقبل شفاعته في أهل التوحيد، وبوئه وأمته جنان الخلود، وضاعف صلواتك عليه وعلى آله يا ذا الكرم والجود، ثم يلتفت يميناً ويقول : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ما أظلت سماء سماء، ثم يلتفت شمالاً ويقول: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ما وسقت(٨٤) عين ماء، ثم يستقبل الناس فيقول : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وارحم محمداً وآل محمد وبارك على محمد وعلى آل محمد كما صليت وباركت وترحمت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد، اللهم صل على ملائكتك المقربين، وأنبيائك والمرسلين، وأهل طاعتك أجمعين، من أهل السموات والأرضين، واجعلنا منهم يا أرحم الراحمين، اللهم أصلح عبدك وخليفتك فلاناً أمير المؤمنين، بما أصلحت به الخلفاء الراشدين المهديين، الذين قضوا بالحق وكانوا به يعدلون، اللهم وأصلح الأمير فلان بْن فلان صلاحاً تعز به نصره، وتعلي به قدره، وترفع به ذكره، اللهم سهل له سبيل الظفر في الجهاد، وأعنه على ذوي الكفر والعناد، ولا تخله من جميل التأييد والإسعاد، إنك كريم جواد، اللهم سدد الإسلام وثقف أوده، وشيد بنيانه وارفع عمده، وثبت أركانه واشدد عضده، وضعضع الكفر ودكدك سنده، وشتت شمله واقطع مدده، وفرق جمعه وأقلل عدده ...»(٨٥).

٧ - فصول الأدعية :

يقدم ابن نباتة في هذه الفصول تسعة عشر دعاء، يخص أمير البلد بثلاثة عشر منها، وعلى الرغم من أن ابن نباتة قد استنفد كثيراً من جهده في محاولة تغيير صيغ الأدعية ومعانيها، لكنها لا تكاد تخرج عن معاني الأدعية التي تضمنتها الخطب السالفة .

أما فصول الأدعية الأخرى فكانت ما بين دعوة عامة للمسلمين ودعوة خاصة لأهل الثغور والمجاهدين، بالإضافة إلى فصل عقده يشتمل على دعاء يقال عند التوجه إلى الحرب، وآخر كان في الدعاء علىَ العدو .

ومما نقتطفه من تلك الأدعية قوله : «اللهم انصر جيوش المسلمين حيث ما سلكوا من أقطار البلاد، وأمددهم بجيوش العون وكتائب الإسعاد، وقوِّ نياتهم على القيام بمفترض الجهاد، وأمكنهم من نواصي الكفرة أهل الكفر والعناد، واستنقذ المأسورين والمأسورات من ضيق السجون ووثاق الأصفاد، وطهر ثغرنا هذا وثغور المسلمين من دنس الفساد، وأسبل سترك الجميل وحجابك المنيع على هذا السواد، وبلغنا في الدنيا والآخرة نهاية السؤل والمراد، ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد، اللهم أهلك طاغية الكفر وناصريه، وأعوانه ومؤازريه، الذين يبغون إخمال منتك، وزوال سنتك، وإدحاض حجتك وسلوك غير محجتك، اللهم زلزل أقدامهم، ونكس أعلامهم، وأنحس أيامهم، وعجل إرغامهم»(٨٦) .

٨ - لواحق خطب المواقيت :

وهو آخر أقسام خطب ابن نباتة، ويتكون هذا القسم من ثمان وعشرين خطبة، وقد سبق أن أشرنا - عند الحديث عن خطب المواقيت - إلى أن تفريقها في قسمين منفصلين ليس له ما يسوغه، وقد حاولت أن أجد سبباً لهذا الفصل من خلال تمعني في موضوعات خطب القسمين فلم أهتد إلى شيء .

وأحسب أن كتابة الخطب على مراحل، وعدم رغبة ابن نباتة في إعادة التصنيف هو الذي دعا إلى هذا الفصل، وإلى إلحاق هذا القسم، يؤيد ما أذهب إليه أن الرجل لم يلتزم بما نص عليه في عنوان هذا القسم، بل ضم هذا القسم خطباً ليس لها توقيت معين، ولم يذكر في عنوانها أنها يخطب بها في زمن محدد، وذلك كالخطبة الحادية والعشرين التي كانت في ذكر القيامة، وكالخطبة الثانية والعشرين التي كانت في ذكر النار، بل إن بعض تلك الخطب كان له قسم سابق يحسن أن يكون داخله، لكن ابن نباتة لم يلحقه به، نجد ذلك واضحاً في الخطبة الثالثة والعشرين التي كانت في ذكر الموت والمعاد، وكان ابن نباتة قد جعل هذا اللون من الخطب في قسم مستقل .

ويبدو أن ابن نباتة لم يكن مخلصاً للتصنيف، بل جاء توزيعه للخطب على المواقيت عفو الخاطر ودون مراعاة لأية منهجية، فقد قدم ثلاث خطب يخطب بها في ربيع الأول، وخطبتين يخطب بهما في ربيع الآخر، وخطبة واحدة يخطب بها في جمادى الأولى، وأربع خطب يخطب بها في جمادى الآخرة، وخطبة واحدة يخطب بها في شوال، وخمس خطب يخطب بها في ذي القعدة، وخطبة واحدة عن رمضان، وخطبتين في عيد الفطر، وخطبة في عيد الأضحى .

إن تأمل تلك الخطب لا يكشف السبب في خص بعض الأشهر بعدد أكبر من غيره، بل يؤكد عفوية التأليف، وعدم الاهتمام بالتقسيمات، ومن خلال التمعن فيها رأيت أن كثيراً من تلك الخطب التي خصها بشهر معين لم تكشف عن خصوصية، إذ يصلح أن يخطب بها في أي شهر آخر من شهور السنة .

وقد ضم هذا القسم أيضاً ثلاث خطب يخطب بها في النكاح، وخطبتين اشتملتا على دعاء يقال عند ختم

القرآن الكريم، أطلق على إحداهما اسم (الفاتحة)، وعلى الأخرى اسم (القعسرية)[٨٧]، وهما خطبتان طويلتان ليس لهما نظير في الطول في سائر خطبه، ومما جاء في دعائه في خطبة (الفاتحة) قوله : «اللهم فكما بلغتنا خاتمة القرآن العظيم، وأعنتنا على تلاوة الذكر الحكيم، وفضلتنا بدينك على جميع الأمم، وخصصتنا بكل فضل وكرم، وجعلت هدايتنا بالنبي الطاهر النسب، الكريم الحسب، خير العجم والعرب، محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب، فنسألك اللهم ببلاغه عنك، وقربه منك، وجاهه المقبول لديك، وحقه الذي لا يخيب من توسل به إليك، أن تجعل القرآن لنا إلى كل خير قائداً، وعن كل سوء ذائداً، وعلى مغفرتك وجنة الخلد وافداً، اللهم أرشدنا لحفظه، وأعذنا من نبذه ورفضه، وقلاه وبغضه، ولا تجعلنا ممن يدفع بعضه ببعضه، اللهم أعذنا به من ذميم الإسراف، وروض به نفوسنا على العدل والإنصاف، وذلل به ألسنتنا على الصدق والاعتراف، واجمعنا به على مسرة الائتلاف، واحشرنا به في زمرة أهل القناعة والعفاف، اللهم شرف به مقامنا في محل الرحمة وأكنفنا به في ظل النعمة، واجمعنا به بحبل العصمة، وبلغنا به نهاية المراد والهمة، وبيض به وجوهنا يوم القتر والظلمة»[٨٨] .

وبعد، فلعل هذا العرض قد كشف ما تتسم به خطب ابن نباتة من وضوح في الأفكار والمعاني، ولا غرو إن اتسمت بهذه السمة، ذلك أن تلك الخطب تلقى على عامة الناس ؛ ولذا ينبغي الحرص على أن تكون واضحة، قريبة التناول، ولعل تمرس ابن نباتة وتفانيه في هذا الفن جعله قادراً على إيصال ما يريد من أفكار بيسر وسهولة .

ومما ساعد على وضوح الأفكار في خطب ابن نباتة عدم دخوله في تفريعات الخلافات الشرعية، أو دقائق القضايا العقدية، ذلك أن الحديث عن الملل والنحل، وتسخير الخطب للرد على المخالفين يوقع في شيء من الغموض، ومن ينحو هذا المنحى لا بد أن يلج إلى عالم العمق من خلال الاستعانة بعلم الفلسفة والمنطق للرد والمجادلة ودحض الحجج .

وإذا دعا الأمر إلى ذكر بعض المذاهب فإن ابن نباتة لا يقف عندها طويلاً، بل يتكلم بكلام يتناسب مع عامة الناس، كقوله عن الجبرية والقدرية : «صلى الله على سيدنا محمد أكرم مولود، وأعز مفقود، وعلى آله الركع السجود، والموفين بالعهود، وعلى القدرية والجبرية سخط الله والعذاب الشديد»[٨٩] .

لكن العبارة - أحياناً - قد تخون ابن نباتة فلا توصل إلى مراده، وذلك كقوله عن الله عز وجل : «الحمد لله الواقية جُنته، الباقية سنته، والواجبة منته، القاهرة حجته، الذي سبق الأشياء فهو قديم قدمها، وعلم كون وجودها في نهاية عدمها»[٩٠] .

فالتعبير هنا يوهم أن ابن نباتة يقول بقدم العالم، وأن الله قديم مثل قدمه، وهذا ليس رأي ابن نباتة وإن قاد الكلام إلى ذلك، وقد أطال شارح هذه الخطب الشيخ طاهر أفندي الجزائري الوقوف عند هذه المسألة، مبيناً أن عبارة ابن نباتة فُهِم منها غير ما أراد.

ولعل الجدة في هذه الخطب تكمن في مجيئها مجموعة في ديوان ضخم، يضم ألواناً من الموضوعات المختلفة الصالحة لأن تكون نموذجاً يحتذى، وهو أمر لم يوجد عند أحد سابق لابن نباتة، أما على صعيد الأفكار الجزئية فإن ابن نباتة لم يقدم فيها جديداً بقدر ما حاول التذكير بما هو معروف من خلال تغيير صيغ الوعظ، حتى لا يكون ما يقوله رتيباً ومملاً .

وصدق أفكار ابن نباتة الناتج عن صدق عاطفته هو الذي مكنه من تحقيق القبول لدى سامعيه، وهو الذي

جعلنا نقرأ ما يقول ونتأثر به على الرغم من أننا نحس أن ما يتناوله في خطبه قد سُبِق إليه، لقد أسهم هذا الصدق في صبغ أفكار تلك الخطب بالتجدد حتى وإن أعاد ابن نباتة الحديث عنها .

ثانياً - الدراسة الفنية :

١ - البناء :

ربما تبدو دراسة البناء الفني للخطبة أمراً سهلاً للوهلة الأولى، ذلك أن الخطب عادة ما تسير على نهج معين في تكوينها البنائي، لكن الأمر العسير في خطب ابن نباتة التي يضمها الديوان أنها مجمّوعة نصوص مختلفة البنية من الصعب أن تخضع لمستوى واحد من التحليل، فتلك الخطب وإن جمعها ديوان لكنها لم تكن خطباً كاملة تسير على وتيرة واحدة .

لقد عمد ابن نباتة إلى تقطيع أوصال خطبه بحيث أضحى كل جزء يمثل بنية صغرى داخل البنية الكبرى لمعماره الخطابي، وقد كشفت الرؤية الوصفية لخطب ابن نباتة أنه لم يعتمد الموضوع وحده منهجا في تقسيم ديوان خطبه، بل ضم إلى ذلك منهجاً بنائياً يعتمد الاختصار حينا (كما في فصل الخطب المختصرة)، والاجتزاء تارة (كما في فصل الخطب الثواني)، والاستلال طوراً (كما في فصول الأدعية) التي لا تشكل قسيماً للخطبة الأولى حتى تضم إلى فصل الخطب الثواني.

إن تشظي الخطب إلى وحدات مختلفة الحجم بالإضافة إلى عسر ضبطه يجعل الأحكام النقدية المصدرة رجراجة وغير دقيقة، فما يمكن أن يوصف به المقسم على أساس موضوعي (نسبة إلى الموضوعات) لا يصدق على ما قطع عنه وروعي فيه التشكيل البنائي، لكن تماثل الوظائف وتقارب السمات الذي يبدو نتيجة اتفاق النواة يهون الأمر، ويساعد على تحقيق نظرة كلية لتلك الأبنية المفككة .

صحيح أن ابن نباتة أنشأ هذه الخطب لتكون نماذج تحتذى، لكنه لم يكن يريد من الخطيب المطلع عليها أن ينقل ما يقول ويخطب به، ولذلك لم يقدم خطبتين مكتملتين من خطب الجمعة على الرغم من كثرة ما أورد من النماذج، وأحسب أن السبب في ذلك يعود إلى كونه لا يريد أن تكون خطب الجمعة نسخة مكررة مما قدم، بل يسعى إلى أن تكون جزءاً مساعداً يُضم إليه اصطباغها بروح الخطيب ومسايرتها لعصره .

إننا إذن أمام مجموعة من الأبنية التي ينبغي التماس معها جميعاً لتحديد هويتها، ولعل أول شيء نقرره بهذا الصدد هو أن تلك الوحدات المجزأة خالصة في النثرية لم يدخلها شيء من الشعر على الرغم من قوة سطوته حتى على النصوص النثرية .

فإذا كان الشعر عادة ما يضطلع بدور المثبت للأفكار النثرية، ولذلك غزا سائر أجناس النثر من خطبة ورسالة ومقامة فإن ابن نباتة أخلى منه خطبه فلا تكاد تعثر في كل تلك النماذج التي أنشأها على بيت واحد، لا من قوله ولا حتى على سبيل الاقتباس والتضمين .

إن هذا الإقصاء للجانب الشعري في خطب ابن نباتة لم يأت مصادفة، بل أراد الكاتب منه الإثبات بأن خطبه راسخة في أفكارها وأصل في لغتها بحيث لا تحتاج إلى ما يدعمها أو يقوي جانبها .

ولعله من الممكن نظراً لتعدد أبنية خطب ابن نباتة أن نضم الشبيه إلى شبيهه حتى يتسنى لنا دراستها وتقديم رؤية عنها، ومن هنا أحس أن الخطب المقسمة على أساس الموضوعات تحمل بناء متقارباً يمكن تقسيمه إلى :

أ - مقدمة .

ب - عرض (وسط) .

جـ - خاتمة .

أ – المقدمة :

قبل أن أتحدث عن نظام المقدمة في خطب الموضوعات أحب أن أشير إلى أن هذا المصطلح يدخل فيه من خطب ابن نباتة أربعة أقسام هي :

أ – خطب المعاد .

ب – خطب المواقيت .

ج – خطب الجهاد .

د – لواحق خطب المواقيت .

والمقدمة في هذه الموضوعات متقاربة في طولها تتراوح بين ثمانية أسطر وخمسة عشر سطراً، وفي جميع مقدمات تلك الخطب يستهلها ابن نباتة بقوله : «الحمد لله» ثم يضفي نعوت الجلال ويثني على الخالق بما هو أهله .

ويكاد هذا الحمد الذي يستهل به ابن نباتة خطبه يأخذ طابعاً ذا وتيرة واحدة، فهو يسير على نسق من التوازي اللفظي[٩١] الذي لا يحتاج إلى تأمل كبير لإدراكه، انظر إلى ذلك في قوله : «الحمد لله المسبح باللغات المختلفة، المعروف بإتقان صنائعه المؤتلفه، المنعوت بما نعت به نفسه، الموصوف بما عظم به قدسه، أحمده حمداً يقوم بشكره»[٩٢].

وقوله : «الحمد لله المجير الذي لا يذل من لاذ به بعزه، النصير الذي لا يقل من عاذ بحرزه، المطلع على سرائر القلوب، المتجاوز عن كبائر الذنوب، الذي لا ينقص خزائن ملكه العفو، ولا له ند ولا كفو، أحمده حمد معترف بالتقصير»[٩٣].

وقوله : «الحمد لله المؤمل لكشف الشدائد، المتفضل بتحف النعم والفوائد، الذي أكرمنا بتوحيده، وجعلنا من عبيده، أحمده حمداً قاضياً لحقه»[٩٤] .

وقوله : «الحمد لله ناقض عزائم المخلوقين بإبرام عزمه، وقابض خزائم أنفس الآبقين لإلزام حكمه، وحال عقد الشبهات عن بصائر أهل ورده، وفال عُدَد ذوي الرغبات عن محجة قصده، أحمده حمداً يستوجب فضله»[٩٥].

ولا يفوت ابن نباتة في مقدماته جميعها ذكر كلمة التوحيد منوعاً في أساليب إيرادها، تأمل ذلك في قوله : "وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة مستكين لربوبيته خاضع، راغب في معروفه طامع، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله أرسله بنور ساطع، وحق قاطع»[٩٦] .

وقوله : «وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة من حث على الإقرار بها وحرَّض، وأدار بها لسانه ونضنض، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله أرسله حين تداعت من الحق القواعد، وشاعت من أفعال الخلق الأوابد»[٩٧] .

وقوله : «وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة من لا يشوب شهادته اعتلال، ولا لخيول الشك في حلبة يقينه مجال، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله أرسله آمراً بالمعروف، وزاجراً عن المخوف، ومطهراً من الدنس، ومفسراً لما التبس»[٩٨].

كما لا تخلو مقدمة من مقدماته من الصلاة والسلام على رسول الله وبذلك يختم تقديمه وينطلق إلى موضوع الخطبة .

ولعله بدا من خلال الوقوف عند عناصر المقدمة لدى ابن نباتة أنها وحدة مستقلة لا علاقة لها بموضوع الخطبة، سماعها لا يوحي بما سيعرضه، ولا يكشف عن الداعي إلى كتابتها، هذا في الغالب، ويقل أن تشعر المقدمة بما سيتحدث عنه، ومن ذلك قوله في مقدمة خطبة تتناول الجهاد في سبيل الله : «الحمد لله ملبس ما خلق إحسانه، ومقبس من وفق برهانه، ومعطي من فسق عنانه، ومصلي من مرق نيرانه، الذي أنزل بالإعذار والإنذار قرآنه، وألزم

فرض الجهاد شيوخه وشبانه، فأعز من لزمه وأعانه، وأذل من أهمله وأهانه، وأوجب لمن خاف مقامه أمانه، سبحانه ما أعدل أحكامه سبحانه، أحمده حمد من أطلق بالحمد لسانه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة من شرح بالتوحيد جنانه، وأشهد أن محمداً عبد شرف شانه، ونبي أزلف مكانه، وأظهر بالنبوة سلطانه، وأعلى في شرف الأبوة بنيانه، وملأ بالعدل محالَّه وأوطانه، وجعل المؤمنين أنصاره وأعوانه، حتى هدم من الكفر قواعده وأركانه، وحطم أصنامه وأوثانه»[٩٩] .

ومن المقدمات المشعرة بالموضوع قوله في خطبة يذكر فيها فضل عشر ذي الحجة : «الحمد لله مشرف الأيام بعضها على بعض، ومصرف الأحكام بالإبرام والنقض»[١٠٠] .

ب – العرض :

وهو منطقة الثقل في الخطبة، إذ فيه يتم بسط الموضوع ومناقشته، وهذا القسم عند ابن نباتة معروف المعالم، مرسوم الحدود، ذلك أن بدايته ونهايته لا تحتاج إلى إمعان نظر، فهو يبدأ هذه المرحلة في جميع خطبه، بقوله : «أيها الناس»، وتنتهي مع بداية الخاتمة التي سنشير إلى طريقتها وأسلوبها .

وعلى أن هذه المرحلة من الخطبة تتطلب في كثير من الأحيان إسهاباً في التناول، وتوسعاً في الطرح لكن ابن نباتة لا يلجأ إلى ذلك، وأحسب أن ذلك يعود إلى سببين، أحدهما متعلق بطبيعة الموضوعات التي يتناولها، فهي محسومة الحكم لا تعوز شرحاً ولا تفصيلاً، لأنها من القضايا الكبرى في الإسلام، والسبب الآخر يرجع إلى نظرة ابن نباتة نفسه إلى ما يلقي من خطب، فهو قد رام منها أن تُتَّخَذ أنموذجاً يحتذى ؛ ولذلك حرص على الإيجاز الذي يرى أنه هو البلاغة .

ويبلغ طول هذا القسم عنده خمسة وعشرين سطراً تقريباً، وفيه يباشر الموضوع معتمداً على الأمر والنهي والنداء والاستفهام والتعجب وأسلوب الشرط والجواب حتى يصل إلى جذب المستمعين وشد انتباههم، وهو وإن عول في هذه المنطقة من الخطبة على الآيات القرآنية – أحياناً – فإنها في خطب كثيرة تجيء خلواً منها .

تأمل هذه السمات في قوله : «أيها الناس شمروا للجهاد عن ساق العزم الجلي، وأقدموا على عدوكم إقدام الأتي، فإنه والله لا قرَّب أجل أحدكم الإقدام، ولا زاد في عمره الإحجام، وإنما هي آجال محدودة، وأنفاس معدودة، فأنفقوا في ابتغاء الخلف، ولا تمحقوها في سبيل التلف، ولا تكونوا من الذين اتخذوا الدنيا معقلاً، ورضوا بالعجز موئلاً، فأسلمتهم الدنيا إلى الخذلان، وقادهم العجز إلى الهوان، فلم يحصل لهم من الدنيا ما أملوه، وفاتهم من الآخرة ما أهملوه، وما أقبح العجز رحمكم الله بنفوس طاهرة، وألباب حاضرة، تنكل عن جهاد جثث كافرة، تشتمل على قلوب طائرة، ليس لها بصائر كبصائركم، ولا تؤمل أن تصير إلى مصائركم، أو ما سمعتم الله تعالى يقول : ﴿**إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لا يَرْجُونَ**﴾[١٠١]، فبأي وجوه على الله غداً تقدمون، وبأي معاذير عنده تعتذرون، وأنتم عن سبيله ناكبون، ومن عدوه وعدوكم هاربون، وعما فيه من الجهاد راغبون، وإلى ما نهاكم عنه موجفون، وربنا المستعان على ما تصفون، فقصروا في الدنيا آمالكم، واستصغروا في جنب ما أعد الله لكم أحوالكم، وأنفقوا في سبيله أنفسكم وأموالكم، ... فوالذي بعث محمداً بالحق رسولا، قسماً لا تجدون له تبديلاً، لئن نصرتم الله لينصرنكم، ولئن دعوتموه لينجينكم، ولئن استغثتم به ليغيثنكم، ولئن شكرتموه ليزيدنكم»[١٠٢].

جـ - الخاتمة :

وهي أقصر الأقسام السالفة طولاً، إذ هي في حدود أربعة أسطر، تشتمل على دعاء له وللحاضرين، وجملة يتكرر نمطها في جميع خطبه مكونة من (إن) واسمها وخبرها، يعقبها آية أو آيات مرتبطة بالموضوع يقفل بها ابن نباتة خطبته .

وتتضح هذه السمات بتأمل النموذجين التاليين، يقول : "أيقظنا الله وإياكم من سنة الطبع، وأعاننا وإياكم على هول المطلع، وأمننا وإياكم يوم الفزع، وأزلفنا وأياكم في المرتجع، إن أولى ما أنذر به ووعظ، وأحلى ما تمسك به وحفظ، القرآن المبين، الذي نزل به الروح الأمين، وتقرأ ﴿ كَلاَّ إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ ﴾(١٠٣) إلى قوله : ﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ ﴾(١٠٤) »(١٠٥) .

ويقول أيضاً خاتماً : "أعزنا الله وإياكم بطاعته، ولا أذلنا وإياكم بترك أمره وإضاعته، وأعاننا وإياكم على أهوال الموت وفظاعته، إن أوضح الوعظ منهاجاً، وأفصح اللفظ ازدواجا، كلام من جعل البحرين فراتاً وأجاجاً، وتقرأ ﴿ كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالاً وَأَوْلادًا ﴾(١٠٦) الآية »(١٠٧) .

أما الخطب التي دخلت تقسيمات ابن نباتة على أساس شكلي فالبناء فيها متباين، فما كان منها معتمداً على النظرة الموجزة - ويدخل في ذلك قسم الخطب المختصرة، وقسم الفصول - فهو قصير البناء في الغالب، وإن كان عدد أسطره غير مطرد فتارة يبلغ في طوله مبلغ القسم السالف، ومرة لا يتجاوز خمسة أسطر .

وتتميز الخطب المختصرة عن قسيمتها في أنها تماثل بناء الخطب المقسمة على أساس الموضوعات، فهي لا تختلف عنها إلا في حجمها القصير، إذ هي مشتملة على مقدمة وعرض وخاتمة، وكل عنصر من هذه العناصر مميز المعالم، معروف الحدود، فالمقدمة تبدأ بحمد الله، وتشتمل على الشهادتين والصلاة والسلام على رسول الله، والعرض يبدأ بقوله : «أيها الناس»، والخاتمة تضم الدعاء له وللحاضرين وجملة الختام المكونة عنده من (إن) واسمها وخبرها، والإقفال بالآية القرآنية .

لكن شدة الإيجاز قد تدفعه - أحياناً - إلى الاقتصار في الخاتمة على إيراد الآية القرآنية فحسب، مع الاحتفاظ ببقية العناصر الأخرى، وقد بدا ذلك في الخطبة الرابعة من هذا القسم .

فالأمر مختلف عن قسم الفصول الذي تختلط فيه مكونات الخطبة (المقدمة - العرض - الخاتمة)، وتنمحي معالم الحدود بينها، فيظهر لمن يقرؤها أنها لا تستقل بخطبة؛ لأنها لا تسير على قواعد الخطب، ولم يتبين لي حقية أمر هذه الفصول، هل هي جزء من الخطبة، أو أنها خطب مستقلة ؟

وتعود هذه الحيرة إلى أن هذه الفصول لا ينطبق عليها أي من هذين الاحتمالين، فهي لا يمكن أن تكون خطبة كاملة للنقص الكبير في عناصرها . واشتمالها على جزء من المقدمة في بعضها وجزء من العرض أو الخاتمة في بعضها الآخر يجعل إلحاقها بأحد عناصر الخطبة أمراً غير صحيح .

ومن الخطب التي وضعت في قسم خاص لاعتبار شكلي الخطب الثواني، والنماذج التي ساقها ابن نباتة لها مضطربة الطول، فالأنموذج الأول يصل إلى سبعة وعشرين سطراً، والأنموذج الرابع جاء في ثلاثة أسطر، وهي كما سبق أن أشرت - في الرؤية الوصفية - لا تشتمل على أي جزء من الموضوع الذي تعالجه الخطبة، وإنما هي عنده خاتمة كبرى، تلي الخاتمة الصغرى التي يذيل بها ابن نباتة الخطبة الأولى .

ولاهتمام ابن نباتة بالأدعية التي تشتمل عليها الخطبة استل هذا الجزء وأفرد له قسماً خاصاً، وليس لتلك الأدعية بناء يستحق الوقوف والتأمل، وإنما هي ابتهالات يتضرع فيها الكاتب إلى الله تعالى .

وتتراوح الأدعية التي أوردها ما بين ثلاثة أسطر وعشرة، وهي أدعية لا يبدو من خلالها الموطن الذي تورد فيه، إذ يمكن أن يقال بعضها في الخطبة الأولى، كما يسوغ أن يتلى بعضها الآخر في الخطبة الثانية .

٢ – اللغة :

تعد الألفاظ اللبنات الأولى في بناء النص، فمن خلالها يتمكن المؤلف من إقامة إبداعه، وبرصفها بشكل متناسق يبدو العمل الأدبي أكثر إشراقاً، وأقوى تأثيراً، وقد تبوأ «اتساق النص وانسجامه موقعاً مركزياً في الأبحاث والدراسات التي تندرج في مجالات تحليل الخطاب»[١٠٨] ومن هنا غدا من الضروري عدم تجاوز أي نص يعالج فنياً دون الوقوف على هذا الجانب .

ولا ريب أن «المعجم الذي يستخدمه الكاتب أو الشاعر هو من أبرز الخواص الأسلوبية الدالة عليه، والمبينة عن سر صناعة الإنشاء عنده»[١٠٩]، وزيادة الثروة اللفظية عند الأديب تدل على تميزه من جهة، وتكسب النص فرادة من خلال تنوع مفرداته من جهة أخرى .

وإذا كان الناس في حقبة ابن نباتة قد أكبوا على حفظ خطبه قارنين إياها بمقامات الحريري – كما سبق أن أشرت في بداية هذا البحث – فإن ذلك يدفع إلى محاولة الاقتراب من مفردات تلك الخطب لمعرفة مدى تنوعها .

ويمكن هنا الإفادة من مقياس جونسون(w.Johnson) للكشف عن وسطية التنوع في تلك الخطب[١١٠]، حتى لا يكون الكلام عن القيمة اللغوية لها مغلفاً بالعبارات العامة التي تثني دون أن تحصي، والتي تسبغ سمات التميز دون تمحيص .

وعند محاولتي رصد مستوى التنوع في خطب ابن نباتة تبين أن القيمة الوسطية قد بلغت (**١,٦** ٪) وتلك قيمة أحسبها ضعيفة بالنظر إلى ما تتمتع به تلك الخطب من تبجيل في أعين معاصري كاتبها .

وإذا كان المكبون عليها يقرنونها بالمقامات، فإنه قد فاتهم أنها لا تصل إلى مستواها على صعيد تنوع اللفظ، وقد سبق لي أن قمت بقياس القيم الوسطية في الأسلوب لدى مجموعة من محترفي كتابة المقامة في العصر الوسيط، ومن خلال المقارنة يتبين أنها لا تداني فن المقامة في مستوى الثراء اللغوي، إذ قد جاءت القيم الوسطية لدى المقامين عالية جداً، تأمل ذلك في الجدول التالي[١١١]:

الكاتب	القيمة الوسطية
ابن الصيقل الجزري	٪٨٠,٣
ابن ماري	٪٧٥,٦
ابن الجوزي	٪ ٧١,٣
أبو بكر العلوي	٪ ٦٨,٦

على أن هذا التدني الذي اتسمت به خطب ابن نباتة والذي كشف عنه الإحصاء لا ينبغي أن ينظر إليه بمعزل عن طبيعة الجنس الأدبي، فالمقامات التي قرنت بتلك الخطب كتبت لتقرأ، أما الخطب فقد كتبت لتلقى، ولا ريب أن الخطيب يحتاج إلى التكرار كثيراً لإيصال ما يريد إلى الحاضرين، وبالتالي تقل نسبة التنوع لديه، في حين أن كاتب المقامة يستغني عن ذلك لأنه يعرف أن القارئ يمكن أن يعيد قراءة العبارة التي قد تشكل عليه، ولذلك لا يقوم بتكرارها .

ولعل أهم ميزة تتميز بها ألفاظ خطب ابن نباتة هي الصحة والأصالة، فعباراته خالية من الألفاظ العامية أو الدخيلة، وهو ينتقيها مراعياً شروط الفصاحة التي أشار إليها البلاغيون .

وهي ألفاظ بالإضافة إلى سلامتها من الابتذال تذكّر بألفاظ القرآن الكريم، تأمل ذلك في قوله : «فدراك دراك ... قبل شخوص الأبصار في المحاجر، وبلوغ القلوب الحناجر، ... هنالك يبرق البصر، وينزل القدر»[١١٢] .

وقوله : «فهنالك أزفت الآزفة، ورجفت الراجفة، وتطايرت الكتب، وكشفت الحُجُب، وتشققت السماء، وأشفقت الأنبياء، وانتثرت الكواكب، وعظمت المصائب»[١١٣].

وقوله : «وتُشَيعون غادياً إلى الحافرة[١١٤] لا يُرْبِع، وتروّعون بفاقرة[١١٥] لا تُقْلِع»[١١٦] .

لكنه - كغيره - لم يسلم من بعض الانتقادات التي وجهت له، فهذا ابن الأثير يتهمه بأنه لا يحسن استعمال بعض ألفاظه، فيذكر أنه وردت عنده لفظة (اشْمَخَرَّ) مع أنها لا تحسن في الخطب والمكاتبات[١١٧]، في حين يرى ابن الأثير أن اللفظة لا بأس بها في قول البحتري :

مُشْمَخِرٌ[١١٨] تعلو له شُرُفاتٌ

رُفِعَتْ في رؤوسِ رَضوى وقُدْسِ[١١٩]

وقد جاءت اللفظة التي أشار إليها ابن الأثير في قول ابن نباتة : «فكأنكم بالساعة قد رجف زلزالها، واشْمَخَرَّ وبالُها، واقْمَطَرَّ[١٢٠] نكالُها»[١٢١].

وابن الأثير لا يرى هذه اللفظة غريبة، لكنه يستكره أن تقال في الخطبة، والحق أن ابن نباتة لم يستعمل الألفاظ التي يبدو فيها الثقل فحسب، بل جنح كثيراً إلى استخدام الألفاظ الغريبة التي لا تصلح في فن خطابي يسمعه عامة الناس، ويتضح ذلك في قوله :

«وقِفوا على أجداث المُنْزَلين على شناخيت[١٢٢] الذُرى»[١٢٣].

وقوله: «وازبأرَّت[١٢٤] في قلوب أهل النفاق عقاربه»[١٢٥].

وقوله: «وهداهم بنور اجتبائه لأرشد لَقَمٍ[١٢٦]»[١٢٧].

ومن ألفاظه الغريبة أيضاً كلمة (ثُلَّة) التي جاءت في قوله: «وأنفقوا ثُلَّةً[١٢٨] عنفوان الآجال، في طرقات الآمال»[١٢٩].

وكلمة (الضبنة) التي وردت في قوله: «أين من كان قبلكم من القدماء، من الجبابرة والملوك والعظماء، والسادات الأكابر والأمراء، من ذوي الضبنة[١٣٠] والضوضاء»[١٣١].

وربما حملت العبارة أكثر من لفظة غريبة كقوله : «فأتوكم شعثاً ... على حراجيج[١٣٢] أنقاض الدلج، وعناجيج[١٣٣] خواض اللجج»[١٣٤] .

وقد يكون الدافع للإغراب عائداً إلى الحرص على السجعة، ويظهر ذلك واضحاً في قوله «فقد تفرى غسق الليل عن الصبح المنير، ورمى الله أعداءكم بالنآد العنقفير[١٣٥]»[١٣٦].

وتأمل استعماله لجمع غير شائع ترى ذلك بيناً، يقول : «وشمخت بهم العزة في الشاهقة الشماء، واستطالوا بكثرة الأموال والعِبِدّاء»[١٣٧]، فقد آثر استعمال كلمة (العبداء) على لفظة (العبيد) مراعاة للسجع .

ويحرص ابن نباتة على أن يوظف ألفاظه في خدمة معانيه، فتراه يلجأ إلى التكرار كثيراً لإيصال مراده، ويظهر ذلك في قوله : «فالجهاد الجهاد أيها الموقنون، والظفر الظفر أيها الصابرون، والجنة الجنة أيها الراغبون، والنار النار أيها الهاربون»[١٣٨] .

وقوله : «فالتشمير التشمير أيها القاعدون، والنفير النفير أيها المجاهدون»[١٣٩] .

وربما اعتمد على صيغ المبالغة لتقوية التوصيل، كقوله : «فيا أيها الحُلاَّل منازل الراحلين، والوُرَّاد مناهل الأولين»[١٤٠] .

وكقوله : «فصارت الفلوات مساكنهم تُرَّاكاً لما جمعوه، مُلاَّكاً لما زرعوه»[١٤١] .

وتراكيب ابن نباتة في خطبه متماسكة متلاحمة، فهو متمكن من ربط عباراته وكلمه، لا يدفعه السجع الملتزم في خطبه إلى حشو لا داعي له، كما أن أسلوبه بعيد عن المعاظلة والالتواء، ولعل أدنى نظرة في عبارات تلك الخطب

تكشف عن قدرته على التعامل مع أدوات الربط سواء أكانت حروف عطف أم غيرها .

لكن الأسلوب المسجوع ربما أملى عليه شيئاً من التقديم أو التأخير، وهذا قليل عنده، يقول مؤخرا الفاعل: «أحمده على ما هو أهله، حمداً يتصل باتصاله فضلُه»(١٤٢).

ويقول : «وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أرسله والكفر طاغ عبابه، ... قد كفر الحقَّ جلبابُه، وبهر الخلقَ عُجابُه»(١٤٣) .

ومن ذلك قوله: «حتى لقد شاب(١٤٤) يقينَ الغُمر(١٤٥) فيكم الارتياب، وقال الجاهلون ما لنا ندعو فلا نجاب»(١٤٦).

وجمل خطب ابن نباتة متوسطة الطول فلا هي بالطويلة التي قد يختفي المعنى نتيجة امتدادها، ولا بالقصيرة التي لا تمنحه متنفساً للتعبير عما يريد، وأحسب أن ذلك يعود إلى طبيعة فن الخطابة الذي تشيع فيه الجمل المعتادة لأنها تصل إلى المتلقي بيسر وسهولة.

وتساعد فواصل السجع على ربط المتلقين بما يقال عندما تطول الجملة أحياناً، تأمل ذلك في قوله : «ما بال حبل الله فيكم يقطع، وحقه بينكم يمنع، وسربال الإيمان عنكم ينزع، أفراراً من حكمه، أم اغتراراً بحلمه، أم نقضاً لعهده، أم تكذيباً بوعده»(١٤٧) .

وفي قوله : «الحمد لله ذي المنع العنيف، والصنع اللطيف، والسطو المخوف، والعفو المألوف، المعروف بالمعروف، المحسن البَرّ الرؤوف، أحمده على نَيْلِ مَنَحه، وأزَل زحزحه، ومنٍّ طوقه، وظن حققه، حمداً لا يدع مدداً من البِرّ إلا استوجبه، ولا يغادر أمداً من الشكر إلا استوعبه»(١٤٨) .

وإذا كان الأسلوب الخبري قد يدفع إلى الرتابة ويصيب المتلقين بالملل، فإن ابن نباتة حريص على ربط الحاضرين بما يلقى عليهم فتراه يعتمد كثيراً على الأساليب الإنشائية في خطبه، تأمل هذا التتابع في أسلوب الأمر في قوله : «أيها الناس أعذبوا ألسنتكم بحقائق الذكر، وذللوا أسماعكم لمواقع الزجر، وأنيروا قلوبكم بمصابيح الفكْر، وأكبروا نفوسكم عن صرعات الكْبر، ... فانتبهوا رحمكم الله من رقدة الغافلين، وتأهبوا للعرض على أسرع الحاسبين»(١٤٩) .

وفي قوله : «أيها الناس الزموا التقوى يلزمكم وقارها، واحتموا الدنيا يحتمِكم صَغارُها، وأموا سبل الهدى فقد وضح منارها، وحَرِّموا ظهر المنى فقد جَدَّ بكم عِثارها، وانظروا بعيون الهمم، في مصارع الأمم»(١٥٠) .

ويكثر ابن نباتة من أسلوب التوجع والتفجع، ويسوقه في جمل متتالية بهذا الشكل: «فيا خجل المقصرين من التوبيخ في محفل القيامة، ويا حيرة أولى التفريط من زلازل يوم الطامة، ويا سوء منقلب الظالمين عند حلول الندامة، ويا حسرات الهالكين إذا عاينوا أهل السلامة، ويا هوان المتكبرين إذا حرموا دار الكرامة»(١٥١) .

ومن ذلك قوله : «فيا وحشة ما آنسوه، ويا خرابِ ما عمَّروه، ويا وجد ما أسلفوه، ويا ضياع ما خلَّفوه، ويا خشونة ما أُلحفوه، ويا صحة ما عرفوه»(١٥٢) .

ويعد أسلوب الاستفهام من أكثر الأساليب الشائعة عنده، فهو يعول عليه كثيراً في خطبه، بل إنه ربما حاز النصيب الأكبر في عنصر العرض، وهو يدفع باستفهاماته بشكل متتابع، تأمل هذا السيل الهادر منها في قوله : «أيها الناس ما هذه السنة وأنتم منتبهون، وما هذه الحيرة وأنتم تنظرون، وما هذه الغيبة وأنتم حاضرون، وما هذه السكرة وأنتم صاحون، وما هذه الطمأنينة وأنتم مطلوبون، وما هذه الإقامة وأنتم راحلون، أما آن لأهل الرقدة أن يستيقظوا، أما حان لأبناء الغفلة أن يتعظوا، أما أزف لأولي العقول أن يتفكروا، أما ردرف لذوي التجارب أن يعتبروا»(١٥٣) .

وفي موطن آخر يقول: «أين أهل المعاقل المنيعة، والمنازل الرفيعة، والأبنية العجيبة، والأفنية الرحيبة، والوجوه المنعمة، والمحال المعظمة، أين من أطال الأمل، واستعذب المهل، وأرجأ العمل، واستكثر العبيد والخول، أين المحجوب المُمَنَّع، وأين المهيب المُمَتَّع، وأين الذكي الأروع، وأين الفصيح المِصقَع»[١٥٤] .

وإذا كانت لغة الأديب تكشف عن ثقافته وتشي بما يتمتع به من علم ومعرفة خارج نطاق التخصص، فإن عبارات ابن نباتة في هذه الخطب لا تفشي لنا شيئاً من ذلك إلا لماماً، فمن توظيفة لعلم النحو قوله: «فرحم الله امرأ قدم الحذر، وأنعم النظر، قبل أن يفارق الأوطان، ويعدم الإمكان، ويدَّرِع الأكفان، ويدخل في خبر كان، قبل الأخذ بالكظائم[١٥٥]، والأسف على اكتساب الجرائم، قبل نزول القدر اللازم، وسكون الحركات لدخول الجوازم»[١٥٦].

وقوله عند الموت: «ذلكم اسم واقع على معنى جليل، وخطب قاطع وصل كل خليل»[١٥٧] .

وربما انكشفت تلك الألفاظ في موطن لا تحسن فيه كقوله عن الحق تبارك وتعالى: «بل هو الله سبحانه المتعرف قبل حروف التعريف، المتصرف قبل علل التصريف»[١٥٨] .

٣ - الصورة :

أضحت الصورة ضرورة من ضروريات العمل الإبداعي، فالأديب يسعى إليها، والناقد يبحث عنها، إذ هي «أشد العناصر المحسوسة تأثيراً في النفس، وأقدرها على تثبيت الفكرة والإحساس بها»[١٥٩]، وهي بالإضافة إلى ذلك «تفرض على المتلقي نوعاً من الانتباه واليقظة، ذلك أنها تبطئ إيقاع التقائه بالمعنى، وتنحرف به إلى إشارات فرعية غير مباشرة، لا يمكن الوصول إلى المعنى دونها»[١٦٠] إنها عنصر جذب لا يقتصر فقط على الجمال الناتج عن التزويق والتزيين .

ولإحساس ابن نباتة بما تحدثه الصورة من وقع في نفوس سامعيه جنح في كثير من تعبيراته إلى أفنانها، مستظلاً بخيالها ومجازاتها، وقد أشار زكي مبارك إلى عناية ابن نباتة بالخيال وكلفه به[١٦١] .

وتعد الاستعارة الوسيلة الأولى من وسائل تشكيل الصورة لديه، ولا غرو فهي - كما يشير النقاد - أعلى مقاماً من التشبيه لكونها أكثر تحقيقاً لعملية الادعاء، وأكثر قدرة على إثبات المعنى المطلوب[١٦٢] .

وهو إلى الاستعارات المكنية أميل، إذ هي اللون المفضل لديه عندما يجنح إلى التصوير، ومن أمثلتها عنده قوله عن الدنيا: «من ذا وثق بها فلم تخنه، أم من ذا اعتز بها فلم تهنه، بقاؤها معدوم، وفناؤها محتوم، وسائلها محروم، ونائلها مسموم»[١٦٣].

وقوله يصور هجوم الموت: «ألا وإن الموت قد فغر لابتلاعكم فاه، وامتدت لقبض أرواحكم يداه»[١٦٤] .

ومن جميل استعاراته المكنية قوله: «بينا يُرَى المرء مسروراً بشبابه، مغروراً بسعة اكتسابه ... إذ أسعرت فيه الأسقام شهابها، وكدَّرت له الأيام شرابها، وحوَّمت عليه المنية عقابها، وأعلقت به ظفرها ونابها»[١٦٥] .

أما الاستعارات التصريحية فقليلة الورود في خطبه، ومن أمثلتها قوله مشبهاً الشعر بالزرع وحاذفاً المشبه: «فيا معشر الشيوخ هل بعد ابيضاض الزرع إلا حصاده، ويا معشر الكهول ما نصَّف من الثمار فقد آن جداده»[١٦٦].

وقوله: «وأشهد أن محمداً عبده ورسوله أرسله حين صرَّت من الكفر جنادبه[١٦٧]»[١٦٨]. فهو يشبه الكفرة بالجنادب، ذلك أنهم ينعقون بما لا يعلمون، وأصواتهم تشبه صرير الجنادب .

ويأتي التشبيه في الدرجة الثانية، فهو لا يعول عليه كثيراً، وتشبيهاته متباينة القدر، فهو تارة يتأنق في

إعدادها فتبدو عليها الجدة، كقوله مصوراً المرء بعد دفنه : «فغودرت في الفلاة شلواً مقبوراً، وطال عهدك فأصبحت مجفواً مهجوراً، تأكل الأرض لحمك كما أكلت من ثمارها، وتشرب دمك كما شربت من أنهارها»(١٦٩) .

وقوله عن الدنيا : «إن الدنيا محال، يقتضيه زوال، يحتذيه وبال، أوقاتها سهام أنتم أغراضها، وغاياتها حمام مفعمة لكم حياضها، وعِداتها بروق مخلف إيماضها»(١٧٠) .

وفي أحيان كثيرة تأتي تشبيهاته عادية لا تثير الاهتمام، ومن ذلك قوله ذاماً الدنيا : «احذروا الدنيا فإنها دار ظعن لا شك فيها، وقرار حَزَن لمصطفيها»(١٧١) .

وقوله : «واعلموا أن الدنيا مفازة فيها الطريق إلى الآخرة، وقنطرة عليها الجواز إلى الساهرة(١٧٢)»(١٧٣) .

وتدلف الحقيقة لتشكل وسيلة أخرى من وسائل تشكيل الصورة لديه، فهو ينوع من خلالها صوره حتى لا تسير على نمط واحد، وإن كان اعتماده عليها لا يضاهي اتكاءه على المجاز، ومن صوره المعتمدة على التصوير الحقيقي قوله واصفاً لحظات قبض الرسول ﷺ : «ولقد أتاه في مثل شهركم هذا من رسل ربه الكرام، الموكلون بقبض نفوس الأنام، فجدوا بروحه الزكية لينقلوها، وعالجوها ليُرحلوها، إلى رحمة ورضوان، وخيرات حسان، فاشتد لذلك كربه وأنينه، وترادف قلقه وحنينه، واختلفت بالانقباض والانبساط شماله ويمينه، وعرق لهول مصرعه جبينه، فبكى لمنظره من أبصره، وانتحب لمصرعه من حضره»(١٧٤) .

وربما تعاضدت الحقيقة مع المجاز في رسم الصورة فبدت أكثر إشراقاً وتألقاً، تأمل ذلك في قوله مستسقياً : «فنتوسل إليك ... أن تنشئ لنا سحاباً غدقاً(١٧٥) مدراره، هنيئا انهماره، عاماً ابتكاره(١٧٦)، محفوفة بالسلامة أقطاره، موسومة بالخصب والسعة آثاره، ... تبشرنا بالرحمة والسلامة رعوده، وتهمي بالوابل القَصِف(١٧٧) الصيِّب وفوده، ترسل الرياح بين يديه مبشرات، وتكسو به أرضك حلل النبات، وتنزل علينا بنزوله صنوف البركات، وتفتح لنا به خزائن الأقوات، تضحك في بكائه بروقه، وتدر بالرحمة والنعماء فتوقه، ويتلو منه صبوحه وغبوقه، سحوحاً صوبه(١٧٨)، بطيئاً أوبه، مسفاً(١٧٩) هيدبه(١٨٠)، ملتفاً صيِّبه، صَخِباً إرزامه(١٨١)، متحلباً غمامه، جلجالاً هميره(١٨٢)، سيالاً نميره، متفجرة خِلالُه، منهمرة أذياله، يدفع بعضه بعضاً، وتروي به سماء أرضاً، تبدلنا به من بعد جدب خفضاً(١٨٣)، حتى تطفح به الوهاد، وتروى به البلاد، وتحيى به العباد»(١٨٤) .

وقوله واصفاً النار : «فأين الفرار إذا لفح هجيرها، واضطرم سعيرها، ... وسعت آفاتها، ونفخت حياتها، وصعدت ذوائبها، وعقَّدت عقاربها، وتفرقع شرارها، وارتفع غبارها، وقطَّب خُزّانها، وكلح أعوانها»(١٨٥) .

وربما دفع الاحتفاء بالتخييل ابن نباتة إلى رسم صورة ترسف في أغلال الصنعة والتكلف، فلا يقبلها السامع، ويظهر مثل ذلك في قوله : «فإنه من اتخذ الليل جملاً قطع عليه مفاوز الهلكات»(١٨٦) .

وقوله : «وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة من لا يشوب شهادته اعتلال، ولا لخيول الشك في حلبة يقينه مجال»(١٨٧) .

إذ يحس المتلقي بنشاز كل من الألفاظ (جَمَلاً – خيول – حلبة) ويشعر أنها أقحمت في التركيب من أجل رسم الصورة .

٤ – المحسنات البديعية :

قد يبدو للوهلة الأولى أن هذا المبحث لا يصح أن يكون قسيماً للمباحث السالفة، ذلك أن الدراسات الحديثة درجت على تقسم عناصر النص إلى بناء ولغة وصورة وإيقاع، وأضحت المحسنات البديعية بعد هذا التقسيم

مندرجة تحت هذه الأقسام فالطباق – مثلاً – يدرس ضمن الصورة، والاقتباس يدخل تحت البناء، والجناس والسجع والموازنة تنضوي داخل مبحث الإيقاع، وهكذا لا يبقى ما يدعو إلى جعل ما يخص الصنعة البديعية في مبحث مستقل.

لكن قيام هذه الخطب على الصنعة البديعية واحتفالها بها هو ما جعلني أستل هذه المحسنات من تلك المباحث وأفرد لها قسماً مستقلاً، وذلك حتى تتبين نظرة ابن نباتة إلى هذه الزخارف الكلامية التي أضحت في عصره وبعد عصره هدفاً للكتاب والشعراء، فتغيرت لذلك ذائقة المتلقين أصبحوا يقومون الآثار الأدبية بناء على تعاملها مع هذه المزينات والمجملات .

ويعد السجع من أكثر المحسنات التي اتكأ عليها ابن نباتة في خطبه، فهي مسجوعة من أولها إلى آخرها، فما سمات هذا السجع ؟ وهل هناك منهج سجعي خاص بابن نباتة ؟

قبل أن ندلف للإجابة أقف عند عبارة لابن الأثير يمكن أن تعد مفتاحاً لهذا الموضوع، فهو يرى أن أكثر سجع ابن نباتة لا يختلف فيه معنى القرينتين، فالقرينة الثانية لا تضيف معنى جديداً، وهو لذلك يعيب سجعاته، يقول قارناً إياها بسجعات الحريري: «ولقد تصفحت المقامات الحريرية والخطب النباتية على غرام الناس بهما وإكبابهم عليهما فوجدت الأكثر من السجع فيهما على الأسلوب الذي أنكرته»[188] .

وأحسب أن ابن الأثير محق في وصفه لا في حكمه، فما وصف به نهج ابن نباتة في سجعه صحيح، لكن الحكم على أن ذلك منتقد فيه نظر، إذ ما العيب في أن تكون القرينة الثانية مؤكدة لمعنى الأولى ومقوية لها، إن الذوق لا يرفض ذلك، لا سيما أنه ورد في القرآن الكريم، حيث يقول تبارك وتعالى : ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * إِلَهِ النَّاسِ﴾[189] .

وإذا كان البلاغيون يقسمون السجع إلى قصير وطويل ومتوسط[190]، ويفضلون القصير منه لأنه يدل على التمكن وإحكام الصنعة[191] فإن ابن نباتة قد نحى السجع الطويل جانباً ، وجاءت أسجاعه مراوحة بين التوسط والقصر، وإن كانت الغلبة عنده للأسجاع المتوسطة، ولا أحسبني محتاجاً إلى إيراد أمثلة على هذا اللون إذ فيما مضى من الأمثلة ما يغني، أما أسجاعه القصيرة فمنها قوله عن الدنيا : «بقاؤها معدوم، وفناؤها محتوم، وسائلها محروم، ونائلها مسموم»[192] .

وقوله معدداً الكائنات التي تسبح لله تعالى : «والشمس والقمر، والسحاب المسخر، والرعد الهاتف، والبرق الخاطف، والرياح الذاريات، والطير الصافات، والظلام والنور، والظل والحرور، والأرض وسكانها، والبحار وحيتانها، والجبال والحجر، والرمال والمدر، والدواب والأنعام، والسباع والهوام، والضباب والغمام، والأهوية المتفتقة، والأجواء المنخرقة»[193] .

وغالب سجع ابن نباتة يكون بين جملتين – كما مر – ويكثر عنده مد السجع إلى القرينة الثالثة أو الرابعة كقوله : «الحمد لله السريع حسابه، المنيع حجابه، الوبيل عقابه، الجزيل ثوابه، الذي جل عن تمثيل القياس، وعظم عن إدراك الحواس، وتعالى عن الأنواع والأجناس، وعم بفضله كافة الجنة والناس»[194] .

ويعد أمراً عادياً عند ابن نباتة أن تصل القرائن المسجوعة على حرف واحد إلى ست، ومن ذلك قوله : «وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، بعثه بأنور منار، وأشهر شعار، وأكثر فخار، من أطهر بيت في مضر بن نزار، صلى الله عليه آناء الليل وأطراف النهار، وعلى آله المصطفين الأخيار»[195] .

وقوله : «حتى تهذب مشرب الإيمان فطاب، وتصوب

كوكب البهتان فغاب، وخسر عابد الشيطان فخاب، وظفر من أناب إلى الرحمن فتاب، صلى الله عليه وعلى آله صلاة يجزل بها الثواب، ويحلهم بها في المنازل الرحاب»(١٩٦) .

وربما طاوع الحرف الذي يسجع عليه ابن نباتة فامتدت الجمل المسجوعة إلى عشر، وذلك قليل كقوله ذاماً أهل المعاصي : «باعوا الأمانات، وأضاعوا الصلوات، واتبعوا الشهوات، واستمعوا القينات، وأظهروا المنكرات، بأكل الربا في التجارات، وفعل الرياء وزور الشهادات، ولم يعتبروا بالآيات، ولا راقبوا رب السموات، ولا استحيوا من عالم الخفيات»(١٩٧) .

ويندر أن تتجاوز الجمل المسجوعة هذا العدد، ومن ذلك قوله ناظماً عشرين جملة على سجعة واحدة : «الحمد لله منشئ أصناف الفطر، ومحيي الأرض بوابل المطر، الغالب على ما بطن وظهر، والعالم بما بقي ودثر، أحمده حمد من أولي جميلاً فشكر، وأنزهه عن قول من جحد وبه وكفر، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له تعالى فقدر، وملك فقهر، وعُصِي فغفر، وجوُهِر بالقبيح فستر، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله أرسله محجة لمن استبصر، وحجة على من استكبر، فقام بما أمر به وأنذر، وجاهد في سبيله وشمر، ودعا إلى طاعة الله وأمر، ونهى عن مخالفته وزجر، حتى ابلولج قمر الإيمان فأبدر، وخبا نجم البهتان فأدبر، صلى الله عليه وعلى آله وأكثر، كما طيَّب جبِلَّتهم وطهَّر»(١٩٨) .

ويبدو احتفاء ابن نباتة بالكلمة الساجعة واضحاً، فهو يكررها أحياناً حتى يحقق أكبر قدر من الإيقاع، تأمل ذلك في قوله : «فما بقاء من تقرضه الأيام قرضاً قرضاً، وترُضُّه الأسقام رضّاً رضّاً، وتنقصه الآفات نقضاً نقضاً، وتركض به الساعات ركضاً ركضاً»(١٩٩) .

وربما جاءت الكلمة الساجعة تكراراً للفظة وردت في صدر جملة السجع، كقوله: «وهي كلمح البصر من اقترابها، فكفى بها لمن عقل واعظاً كفى بها»(٢٠٠) .

وقوله : «فالقهقرى رحمكم الله عن حبائل العطب القهقرى، واقطعوا مفاوز الهلكات بمواصلة السرى»(٢٠١) .

وهو لا يلتزم في سجعه ما لا يلزم، وما جاء من ذلك فهو دون قصد، انظر إلى قوله: «الحمد لله الذي ليس له نظير فيناقضه، ولا وزير فيعارضه، ولا ظهير فيراوضه، ولا مشير فيفاوضه»(٢٠٢) تجد أنه قد التزم ما لا يلزم في كلمتي (يراوضه - يفاوضه) وترك ذلك في كلمتي (يناقضه - يعارضه) مع أنهما على السجعة نفسها .

وتأمل قوله : «فأصبح أسيراً في ربقة المنون، تسح عليه سجال العيون ، وترجم في مستقره خواطر الظنون، عند سلوكه سبل من سلف من القرون»(٢٠٣)، تلحظ أن التزام ما لا يلزم قد جاء بين كلمتي (المنون - الظنون) وغاب في كلمتي (العيون - القرون)، وهذا يدل على أن ما جاء من التزام ما لا يلزم عنده إنما هو غير متقصد .

وإذا كان أهل البلاغة يرون أن الأسجاع في النثر كالقوافي في الشعر(٢٠٤)، فإن ما يعاب في القافية الشعرية يعاب في لفظة السجع، ومن هنا فإني آخذ على ابن نباتة وقوعه فيما يسمى في عيوب القافية (سناد التوجيه)(٢٠٥)، وهو الذي لا يراعي فيه الشاعر حركة ما قبل الروي المقيد (الساكن)، وقد ارتكب ابن نباتة ذلك حين قال : «الحمد لله الذي علا في ارتفاع مجده عن أعراض الهمَمْ، وخلا باتساع رفده من اعتراض التهَمْ، وجلا قلوب أوليائه بينابيع الحكَمْ، وهداهم بنور اجتبائه لأرشد لقَمْ(٢٠٦)، أحمده على صنوف النعَمْ، حداً تضيق بإحصائه حروف الكلِمْ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تشفي القلوب من السقَمْ»(٢٠٧) .

فالحرف الذي يماثل حرف الروي في المقطع السابق هو حرف الميم وهو ساكن الحركة، ولا بد من التزام حركة ما قبله، وقد التزم ابن نباتة حركة الفتح في كل جمله المستشهد بها إلا في قوله : "حمداً تضيق بإحصائه حروف الكلِمْ" فإن حركة ما قبل الميم الساكنة هي الكسرة .

وكثيراً ما يضيف ابن نباتة إلى إيقاع (السجع) إيقاع (الموازنة) فتغدو جمله ذات تنغيم مطرب، وقد جاء هذا التوازي بين الألفاظ لديه على أكثر من ضرب، فهو تارة يقصره على القافية، كقوله : «وأشهد أن محمداً عبده ورسوله أرسله بالآيات الباهرة، وفضله على المقامات الفاخرة، فجلا به صدأ القلوب الكافرة، ونصب به أعلام الملة الناضرة»(٢٠٨) .

وقوله عن الدنيا: «وتقطع وشايج التواصل، وتصير بأهلها إلى البغضاء والتخاذل»(٢٠٩).

ومرة تكون الموازنة بين كلمات الجملتين سوى لفظة القافية، كقوله : «أمارنا الله وإياكم بنوافل أعطياته، وأجارنا وإياكم بمعاقل توفيقاته»(٢١٠) .

أو تكون بين غالب ألفاظ الجملتين سوى كلمة القافية، وهذا كثير لديه، يقول عن الدنيا : «أوقاتها سهام أنتم أغراضها، وغاياتها حمام مفعمة لكم حياضها، وعداتها بروق مخلف إيماضها، وكرّاتها دفوق متلف مخاضها»(٢١١).

ويقول في معرض ثنائه على الرسول ﷺ : «حين تلاطم من بحر الضلال أمواجه، وتراكم على ألباب الرجال عجاجه»(٢١٢) .

وقد تذهب به الزخرفة اللفظية إلى جعل جمل السجع متوازنة في جميع ألفاظها، بما في ذلك قافيتها، ولكن ذلك دون ما سبق من ناحية الكثرة، ومثاله قوله: «بوأه مغالقها، وأوطأه مفارقها، ... يقتضيه زوال، يقتفيه مآل، يحتذيه وبال»(٢١٣) .

وقوله : «لحظها لحظ المعرض الصادف، ولفظها لفظ المغرض العائف»(٢١٤) .

وتشارك حلية الجناس أخواتها في التزيين اللفظي، وهو مقل في الجناس التام، مكثر في الجناس غير التام، فمن الأول قوله: «إن سبل العافية عافية لقلة سلاكها»(٢١٥).

وقوله : «ألا محام يبعثه على جهاد عبدة الصليب رأي صليب»(٢١٦) .

ومن الثاني قوله : «الحمد لله محلي السماء ببديع مصابيحها، ومحل الملائكة في ربيع صفيحها»(٢١٧) فبين كلمتي (محل - محلي) جناس غير تام .

وقوله : «معربة بألسن الأيام، مغربة بمحن الأحكام»(٢١٨)، فالتجانس بين كلمتي (معربة - مغربة) غير خاف .

وقوله وهو يعدد صفات الرسول ﷺ : «الغمام المسبل، والضرغام المشبل»(٢١٩).

وإذا جئنا إلى المحسنات البديعية المعنوية وجدنا ابن نباتة يولي الاقتباس والتضمين اهتمامه، فهو أثير لديه، بحيث يمكن أن يصنف في الدرجة الأولى، ولاسيما الاقتباسات القرآنية التي ملأ بها خطبه، وهو يسير في تعامله معها على أكثر من وجه، فتارة يورد الآية بنصها مراعياً السجع، وهذا كثير لديه، ومن أمثلته قوله وهو يتحدث عن الساعة : «فكأنكم بالساعة قد رجف زلزالها، ... وكشف العيان أحوالها، ﴿وَقَالَ الإِنسَانُ مَا لَهَا﴾(٢٢٠)»(٢٢١).

وقوله مثنياً على الله عز وجل : «فهو المحيط بما يجهلون، ﴿لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾(٢٢٢)»(٢٢٣) .

وقوله في معرض حديثه عن يوم القيامة : «يوم عطش الأكباد وذبول الشفاه، يوم نطق الجوارح وختم الأفواه، يوم يعرف المجرمون بوسم الجباه، ﴿يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾(٢٢٤)»(٢٢٥) .

وأحياناً يضمن الآية أو الآيات دون مراعاة للجانب الإيقاعي، وقد جاء ذلك في قوله: «فتمسكوا بأقوى سبب من تقواه، وكونوا ممن يراقبه ويخشاه، ولا تأمنوا مكره فإنه ﴿فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾(٢٢٦)، واعلموا عباد الله أن ممر الليالي والأيام، ومكرَّ الشهور والأعوام، تنذران بانقضاب الأعمار، وتؤذنان بخراب الديار»(٢٢٧).

وقوله : «فأضحوا رميما تحت أطباق الثرى، وعادوا رفاتاً من طول البلى، أُكُلاً للهوام، ومرتعاً للسوام(٢٢٨)، مجالاً للهوابّ(٢٢٩)، إلى يوم الحساب، ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ * فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾(٢٣٠)، جعلنا الله وإياكم ممن ينتفع بالوعظ، وينافس في جزيل الحظ»(٢٣١) .

وربما أوحت بعض عباراته بالآية القرآنية دون أن يرد ذكرها نصاً، كقوله : «فدراكِ دراك، قبل حلول الهلاك، قبل هجوم ما لا يُدفع، وذهاب ما لا يُرجع، ...هنالك يبرق البصر، وينزل القدر»(٢٣٢) .

فهو يشير إلى قول الله تعالى : ﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ﴾(٢٣٣) .

ويقول أيضاً متصرفاً : «واحذروا أن تسلكوا من الفتن سبلها، والزموا كلمة التقوى وكونوا أحق بها وأهلها(٢٣٤).

فقد نظر في تعبيره إلى قول الله عز وجل : ﴿فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾(٢٣٥) .

أما الأحاديث النبوية فهو لا يوردها بنصها، وإنما يوظفها داخل خطبه متصرفاً في أسلوبها، ومما جاء في ذلك قوله : «الحمد لله الذي اختار البقاء لنفسه وارتضاه، وقدر الفناء على خلقه فقضاه، وحكم فيهم بعدله فأمضاه، ويسر كلاًّ لما خلق له وأرضاه»(٢٣٦).

فهو يشير إلى قول الرسول ﷺ : «اعملوا فكل ميسر لما خلق له»(٢٣٧).

وإذا كان ابن نباتة لم يورد بيتاً واحداً في خطبه فإنه أحياناً يفيد من تراكيب بعض الأبيات الشعرية، فيتذكرها القارئ، نجد ذلك واضحاً في قوله : «فيا من أُخْرِج أبوه من الجنة بذنب واحد بعد أن كان لها مالكاً، كيف تطمع في دخولها بذنوب كالجبال لست لها تاركاً»(٢٣٨).

فالعبارة تذكر بقول محمود الوراق :

تصلُ الذنوبَ إلى الذنوبِ وترتجي
دَرَكَ الجنانِ بها وفوزِ العابدِ
ونسيتَ أن اللهَ أخرج آدما
منها إلى الدنيا بذنبٍ واحدِ(٢٣٩)

وقوله : «فاعلموا أن للموت رحى تعرككم بثفالها، وتهلككم باغتيالها»(٢٤٠) .

فأثر بيت زهير في هذا التعبير واضح، يقول زهير :

فتعرككم عركَ الرحى بثفالها
وتلقحْ كشافاً ثم تنتجْ فتتئم(٢٤١)

وترد في خطب ابن نباتة إشارة إلى بعض الأمثال، كقوله : «فإنه من خالف ما أمر به، وسل سيف البغي قتل به(٢٤٢)»(٢٤٣) .

وقوله بعد أن عدد صفات أحد الولاة : «شنشنة تعرف من أخزمها(٢٤٤)، ونعمة واجب شكر منعمها»(٢٤٥) .

ويتناثر محسن الطباق داخل خطبه، لكن غالب تلك الطباقات عادي مستعمل، لا يثير المستمع، كقوله : «صلى الله عليه وعلى آله ما لاح نجم أو أفل»(٢٤٦) .

وقوله : «واعلموا عباد الله أن ممر الليالي والأيام، ومكرّ الشهور والأعوام، ينذران بانقضاب الأعمار، ويؤذنان بخراب الديار، ويقربان البعيد، ويبليان الجديد، ويهدمان المشيد، ويوهنان الجليد»(٢٤٧) .



وفي أثر المنية يقول : «فكأن قد سلكت بكم الظنون سبيل الخيبة، وهتكت عليكم المنون ستور الهيبة، فجعلت المفاصل حامية، والمقاتل بادية، والمنازل خالية، والحلائل باكية، والمتحرك ساكناً، والمقيم ظاعناً»[٢٤٨] .

وتوجد عنده بعض الطباقات التي يكون فيها شيء من الطرافة، كقوله : «فلم يدع ﷺ فساداً إلا أصلحه، ولا عناداً إلا زحزحه، ولا مغلقاً من الدين إلا فتحه»[٢٤٩] .

وقوله : «فالعجب العجب لمن تُخرِّب الأيام عمره وهو يعمِّر داراً»[٢٥٠] .

وبعد، فلعل الرؤية الوصفية المقدمة عن خطب ابن نباتة قد كشفت عن مضامينها، وعسى أن تكون الدراسة الفنية قد أنزلتها منزلتها التي تستحقها دون أن ترفعها فوق مكانتها، أو تخفضها عن قدرها . إن تحقق ذلك فهو منتهى الطلب .

على أن هناك جوانب في تلك الخطب تستحق الوقفة المتأنية، والدراسة الفاحصة، فهي بحاجة إلى معالجة اجتماعية تكشف عن تأثيرها، ودراسة نفسية من الوجهة الأدبية ترصد معالم نفسية ابن نباتة التي شغفت بالوعظ وفنيت فيه، حتى إنها قصرت إبداعه عليه، لكني رأيت أن تقليب صفحات الكتاب لا بد أن يسبق الخطوات الأخرى، فتلك الخطب لم تلق من يكشف مضامينها ويبين جوانبها الفنية تمهيداً لتقديم دراسات لاحقة ؛ فقمت بذلك، وعسى أن يسمح الزمن بمزيد من التعميق في بحوث قادمة – إن شاء الله – .

الهوامش

١ – للتوسع في ذلك ينظر : الخبر في الأدب العربي : دراسة في السردية العربية، محمد القاضي .– ط١ .– بيروت – لبنان: دار الغرب الإسلامي، ١٤١٩هـ / ١٩٩٨م، ص٣٤ .

٢ – المرجع السابق ص٤١ .

٣ – وفيات الأعيان، ابن خلكان ؛ تحقيق إحسان عباس .– بيروت : دار الكتب العلمية، د. ت. ١٥٦/٣ .

٤ – انظر : المثل السائر، ابن الأثير؛ قدم له وحقق وشرحه وعلق عليه أحمد الحوفي وبدوي طبانة .– ط٢ .– الرياض : دار الرفاعي، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م، ٣١٥/١.

٥ – انظر : التذكرة الحمدونية، ابن حمدون ؛ تحقيق إحسان عباس وبكر عباس .– ط١ .– بيروت : دار صادر، ١٩٩٦م، ٢٩٦/٦ .

٦ – انظر : وفيات الأعيان، ابن خلكان، ١٥٦/٣ . سير أعلام النبلاء، الذهبي .– ط١ .– بيروت : مؤسسة الرسالة، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م، ٣٢١/١٦ . العبر في خبر من غبر، الذهبي؛ تحقيق فؤاد السيد .– الكويت : مطبعة حكومة ١٩٦١م، ٣٦٧/٢ . تاريخ ابن الوردي، زين الدين عمر بن الوردي .– ط٢ .– النجف : المطبعة الحيدرية، ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م، ٤٢٥/١ . الوافي بالوفيات، الصفدي، الجزء الثامن عشر، باعتناء أيمن فؤاد سيد، دار النشر فرانز شتاينر، ١٤١١هـ / ١٩٩١م، ص٣٨٨ . مرآة الجنان، اليافعي .– ط٢ .– القاهرة : دار الكتاب الإسلامي، ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م، ٤٠٣/٢ . البداية والنهاية، ابن كثير .– ط١ .– بيروت : مكتبة المعارف، ١٩٦٦م، ٣٠٣/١١ . النجوم الزاهرة، ابن تغري بردي ؛ قدم له وعلق عليه، محمد حسين شمس الدين .– ط١ .– بيروت – لبنان : دار الكتب العلمية، ١٤١٣هـ / ١٩٩٢م، ١٥٠/٤ . شذرات الذهب، ابن

العماد الحنبلي ؛ أشرف على تحقيقه وخرج أحاديثه عبد القادر الأرناؤوط ؛ حققه وعلق عليه محمود الأرناؤوط .- ط ١ .- دمشق، بيروت : دار ابن كثير، ١٤١٠هـ / ١٩٨٩م، ٤/ ٣٩٧ . هدية العارفين، إسماعيل باشا البغدادي، إستانبول، ١٩٥١م، ١/٥٥٩ . الأعلام، الزركلي .- ط ١٠ .- بيروت - لبنان : دار العلم للملايين، ١٩٩٢م، ٣/٣٤٧ . معجم المؤلفين، عمر رضا كحالة .- بيروت - لبنان: دار إحياء التراث العربي، ٥/٢١١ . تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ .- ط ٢ .- بيروت - لبنان : دار العلم للملايين، ١٩٧٥م، ٢/٥٢٧ .

٧ - انظر : وفيات الأعيان ٣/١٥٦ . سير أعلام النبلاء ٦١/٣٢١ . تاريخ ابن الوردي ١/٤٢٥ . الوافي بالوفيات ٨١/٣٨٨. مرآة الجنان ٢/٤٠٣ . شذرات الذهب ٤/ ٣٩٧ . هدية العارفين ١/٥٥٩.

٨ - انظر : وفيات الأعيان ٣/١٥٦ . الوافي بالوفيات ١٨/٣٨٨ . البداية والنهاية ١١/ ٣٠٣ . هدية العارفين ١/٥٥٩ .

٩ - انظر : مرآة الجنان ٢/٤٠٣ . شذرات الذهب ٤/ ٣٩٧.

١٠- انظر : كشف الظنون، حاجي خليفة، الطبعة الثالثة، المطبعة الإسلامية، طهران، ١٣٨٧هـ، ١/٧١٤ .

١١- انظر : وفيات الأعيان ٣/١٥٧ .

١٢- انظر : تاريخ ابن الوردي ١/٤٢٦. الوافي بالوفيات ٨١/٣٨٨ . النجوم الزاهرة ٤/١٥٠ . هدية العارفين ١/٥٥٩ . الأعلام ٣/٣٤٧ . معجم المؤلفين ٥/٢١١ . تاريخ الأدب العربي ٢/٥٢٧ .

١٣- انظر : سير أعلام النبلاء ١٦/٣٢١ . العبر في خبر من غبر ٢/٣٦٧. شذرات الذهب ٤/٣٩٨.

١٤- انظر : مرآة الجنان ٢/٤٠٣ .

١٥- انظر : المصدر السابق ٢/٤٠٣ .

١٦- انظر : شذرات الذهب ٤/ ٣٩٧ .

١٧- انظر : النجوم الزاهرة ٤/١٥٠ .

١٨- انظر : الوافي بالوفيات ١٨/٣٩٩. النجوم الزاهرة ٤/١٥٠ .

١٩- انظر : وفيات الأعيان ٣/١٥٦ .

٢٠- وفيات الأعيان ٣/١٥٦ .

٢١- سير أعلام النبلاء ١٦/٣٢١ .

٢٢- تاريخ ابن الوردي ١/٤٢٥ .

٢٣- الوافي بالوفيات ١٨/٣٨٨ .

٢٤- البداية والنهاية ١١/٣٠٣ .

٢٥- شذرات الذهب ٤/ ٣٩٨ .

٢٦- سورة آل عمران، الآية (٣٠) .

٢٧- انظر : وفيات الأعيان ٣/١٥٦ . تاريخ ابن الوردي ١/٤٢٥ . الوافي بالوفيات ١٨/٣٨٨ . مرآة الجنان ٢/٤٠٣ . البداية والنهاية ١١/٣٠٣. شذرات الذهب ٤/٣٩٨.

٢٨- انظر : وفيات الأعيان ٣/١٥٧ .

٢٩- انظر : وفيات الأعيان ٣/١٥٧ . الوافي بالوفيات ١٨/٣٨٩ . شذرات الذهب ٤/ ٣٩٨ .

٣٠- انظر : التذكرة الحمدونية ٦/٢٩٧.

٣١- انظر : وفيات الأعيان ٣/١٥٦ .

٣٢- انظر : تاريخ ابن الوردي ١/٤٢٥. مرآة الجنان ٢/٤٠٣. البداية والنهاية ١١/٣٠٣. النجوم الزاهرة ٤/١٥٠. كشف الظنون ١/٧١٤. شذرات الذهب ٤/٣٩٧. هدية العارفين ١/٥٥٩. الأعلام ٣/٣٤٧ . معجم المؤلفين ٥/٢١١. تاريخ الأدب العربي ٢/٥٢٨.

٣٣- انظر : النجوم الزاهرة ٤/١٥٠ .

٣٤- سير أعلام النبلاء ١٦/٣٢٢ .

٣٥- انظر : الوافي بالوفيات ١٨/٣٨٨.

٣٦- انظر : وفيات الأعيان ٣/١٥٧ . سير أعلام النبلاء ١٦/٣٢٢ . تاريخ ابن الوردي ١/٤٢٥ . الوافي بالوفيات ١٨/٣٨٨. النجوم الزاهرة ٤/١٥٠ . شذرات الذهب ٤/٣٩٨ . هدية العارفين ١/٥٥٩ . معجم المؤلفين ٥/٢١١ . تاريخ الأدب العربي ٢/٥٢٧ .

٣٧- انظر : الأعلام ٣/٣٤٨ .

٣٨- النثر في العصر الجاهلي، هاشم صالح مناع ،- ط١ ،- بيروت : دار الفكر العربي، ١٩٩٣هـ، ص٩.

٣٩- تاريخ الأدب العربي : عصر الدول والإمارات - الشام، شوقي ضيف،- ط٢ ،- مصر: دار المعارف، د .ت، ص٣٢٧.

٤٠- تاريخ الأدب العربي ٥٢٨/٢ .

٤١- النجيع: الدم الذي يضرب للسواد.

٤٢- الصمة: الداهية، والصماء: الشّديدة.

٤٣- الداهية المصيبة، والدهياء : الشديدة.

٤٤- المكفهرة : الشديدة الظلمة .

٤٥- اشمخر : طال .

٤٦- اقمطر : اشتد .

٤٧- الأوجال : جمع جل، وهو الخوف .

٤٨- الجوائح: جمع جائحة، وهي الشدة.

٤٩- الرمس : القبر .

٥٠- ديوان خطب ابن نباتة، بشرح الشيخ طاهر أفندي الجزائري ،- بيروت: مطبعة جريدة بيروت، د.ت، ص٣.

٥١- الجنن : جمع جنة، وهي الترس.

٥٢- الولث : الأثر اليسير .

٥٣- البلقع : الأرض القفر .

٥٤- خطب ابن نباتة ص٣٥ .

٥٥- المصدر السابق ص١٢٥ .

٥٦- المصدر السابق ص٩٩ .

٥٧- المصدر السابق ص٣ .

٥٨- المصدر السابق ص٨٦ .

٥٩- المصدر السابق ص١٣٤ .

٦٠- المصدر السابق ص١٣٤ .

٦١- المصدر السابق ص١٥٥ .

٦٢- المصدر السابق ص١٤٨ .

٦٣- أيَّه بكم : ناداكم .

٦٤- سورة الصف، الآية (١٠) .

٦٥- ثُبات: جمع ثبة، وهي الجماعة في تفرقة.

٦٦- خطب ابن نباتة ص١٨٢ .

٦٧- المصدر السابق ص٢٠٠ .

٦٨- المصدر السابق ص٢٠٢ .

٦٩- خامت : جبنت .

٧٠- خطب ابن نباتة ص٢٣٩ .

٧١- المصدر السابق ص٢٤٥ .

٧٢- مرت : مسحت وعصرت برفق .

٧٣- الأخلاف: جمع خِلف، وهو الضرع.

٧٤- خطب ابن نباتة ص٢٦٨ .

٧٥- الحرب الزبون : الشديدة .

٧٦- خطب ابن نباتة ص٢٧٦.

٧٧- الحسام المقضب : القاطع .

٧٨- المحرب : الكثير المحاربة .

٧٩- المشبل : الذي له شبل، والشبل ولد الأسد .

٨٠- خطب ابن نباتة ص٢٨٣ .

٨١- المصدر السابق ص٢٨٦ .

٨٢- المصدر السابق ص٢٨٧ .

٨٣- سورة الأحزاب، الآية (٥٦) .

٨٤- وسقت : جمعت .

٨٥- خطب ابن نباتة ص٣٠٢ .

٨٦- المصدر السابق ص٣٢٨ .

٨٧- سبب تسميتها بالقعسرية، يعود إلى ورود كلمة (القعسري) فيها، ومعناها : الضخم الشديد .

٨٨- خطب ابن نباتة ص٤٤٨ .

٨٩- المصدر السابق ص٣٥٧ .

٩٠- المصدر السابق ص٣٥٦ .

٩١- انظر في مفهوم التوازي وأنواعه : المفاهيم معالم (نحو تأويل واقعي)، محمد مفتاح ،- ط١ ،- بيروت: المركز الثقافي العربي، ١٩٩٩م، ص١٦١.

٩٢- خطب ابن نباتة ص٢ .

٩٣- المصدر السابق ص٦ .

٩٤- المصدر السابق ص١٣ .

٩٥- المصدر السابق ص١٥٨ .

٩٦- المصدر السابق ص٧٢ .

٩٧- المصدر السابق ص٧٩ .

٩٨- المصدر السابق ص٨٢ .

٩٩- المصدر السابق ص٢٢٨ .

١٠٠- المصدر السابق ص١٧١ .

١٠١- سورة النساء، الآية (١٠٤) .

١٠٢- خطب ابن نباتة ص١٨٥ .

١٠٣- سورة القيامة، الآية (٢٦) .

١٠٤- سورة القيامة، الآية (٣٠).

١٠٥- خطب ابن نباتة ص١٩ .

١٠٦- سورة التوبة، الآية (٦٩) .

١٠٧- خطب ابن نباتة ص٨٩ .

١٠٨- لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب ، محمد

خطابي.- ط١ .- بيروت - لبنان : المركز الثقافي العربي ، ١٩٩١م، ص٥ .

١٠٩- في النص الأدبي دراسة أسلوبية إحصائية، سعد مصلوح.- ط١.- جدة : النادي الأدبي الثقافي، ١٤١١هـ / ١٩٩١م، ص٩٩ .

١١٠- للتعرف إلى هذا المقياس وطريقة تطبيقه يمكن الرجوع إلى كتاب: في النص الأدبي دراسة أسلوبية إحصائية، سعد مصلوح ص١٠٦ .

١١١- انظر المقامات المشرقية (٥٥٠ - ١٢٠٠هـ) خالد الجديع، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م، ص٤٩٧.

١١٢- خطب ابن نباتة ص٩ .

١١٣- المصدر السابق ص١٥ .

١١٤- الحافرة : أول الأمر.

١١٥- الفاقرة : الداهية .

١١٦- خطب ابن نباتة ص٢٤ .

١١٧- انظر : المثل السائر ٢٧٣/١ .

١١٨- المشمخر : الشامخ العالي .

١١٩- ديوان البحتري ؛ شرحه وعلق عليه محمد التونجي .- ط١ .- دار الكتاب العربي، ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م، ٦٣٥/٢ .

١٢٠- اقْمَطَرَّ : اشتد .

١٢١- خطب ابن نباتة ص٤ .

١٢٢- الشناخيت : جمع شنخوت، وهو أعلى الجبل .

١٢٣- خطب ابن نباتة ص٦٤ .

١٢٤- ازبأرَّ الرجل : تهيأ للشر .

١٢٥- خطب ابن نباتة ص٩١ .

١٢٦- اللقم : الطريق الواضح .

١٢٧- خطب ابن نباتة ص٩٤ .

١٢٨- التلنة : الحاجة .

١٢٩- خطب ابن نباتة ص٩٨ .

١٣٠- الضبنة : الأهل والعيال .

١٣١- خطب ابن نباتة ص١٠٦ .

١٣٢- الحراجيج : جمع حرجوج، وهي الناقة الطويلة .

١٣٣- العناجيج : جمع عنجوج، وهو الجواد من الخيل .

١٣٤- خطب ابن نباتة ص٢٠٤ .

١٣٥- النآد والعنقفير بمعنى الداهية .

١٣٦- خطب ابن نباتة ص٢١٧ .

١٣٧- المصدر السابق ص١٠٦ .

١٣٨- المصدر السابق ص١٩٠ .

١٣٩- المصدر السابق ص٢٠٦.

١٤٠- المصدر السابق ص٥٠ .

١٤١- المصدر السابق ص٩٤ .

١٤٢- المصدر السابق ص٢٨ .

١٤٣- المصدر السابق ص٩٤ .

١٤٤- شاب : خالط .

١٤٥- الغمر : الجاهل .

١٤٦- خطب ابن نباتة ص٢٢٠ .

١٤٧- المصدر السابق ص٢٢٥ .

١٤٨- المصدر السابق ص٢٦٨ .

١٤٩- المصدر السابق ص١٤ .

١٥٠- المصدر السابق ص٤٩ .

١٥١- المصدر السابق ص٥ .

١٥٢- المصدر السابق ص٢١.

١٥٣- المصدر السابق ص٥ .

١٥٤- المصدر السابق ص٢٦٨ .

١٥٥- الكظائم : مخارج النفس .

١٥٦- خطب ابن نباتة ص١٨ .

١٥٧- المصدر السابق ص٥٣ .

١٥٨- المصدر السابق ص٣٧٥ .

١٥٩- الصورة بين البلاغة والنقد، أحمد بسام الساعي .- ط١ .- دمشق: المنارة للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م، ص٢٨ .

١٦٠- الصورة الفنية في التراث الفني والبلاغي عند العرب، جابر عصفور.- ط٣ .- بيروت : المركز الثقافي العربي، ١٩٩٢م، ص٣٢٨.

١٦١- انظر : النثر الفني في القرن الرابع الهجري، زكي مبارك .- ط٢ .- مصر : المكتبة التجارية الكبرى، ١٦٣/٢ .

١٦٢- انظر : الصورة الفنية في التراث الفني والبلاغي عند العرب ص٢٣٢.

١٦٣- خطب ابن نباتة ص٤٤ .

١٦٤- المصدر السابق ص٨٤ .

١٦٥- المصدر السابق ص٩٥ .

١٦٦- المصدر السابق ص٢٨١ .

١٦٧- الجنادب : جمع جندب، وهو نوع من الجراد .

١٦٨- خطب ابن نباتة ص٩٠ .
١٦٩- المصدر السابق ص٣١ .
١٧٠- المصدر السابق ص٢٦ .
١٧١- المصدر السابق ص٤٤ .
١٧٢- الساهرة : وجه الأرض .
١٧٣- خطب ابن نباتة ص٥٦ .
١٧٤- المصدر السابق ص١٣٦ .
١٧٥- الغدق : الكثير .
١٧٦- ابتكاره : أوله .
١٧٧- القصف : الشديد الصوت .
١٧٨- الصوب : المطر .
١٧٩- المسف : الداني .
١٨٠- الهيدب : مأخوذ من هدب الثوب، وهو طرته، والمراد هنا ما يرى من السحاب على شكل الخيوط المدلاة.
١٨١- الإرزام في الأصل مصدر أرزمت الناقة إذا صوتت، والمقصود أن يكون له صوت أثناء نزوله .
١٨٢- الهمير : النزول الشديد .
١٨٣- الخفض :الرخاء وسعة العيش .
١٨٤- خطب ابن نباتة ص٢٦٢ .
١٨٥- المصدر السابق ص٤٢٢ .
١٨٦- المصدر السابق ص٥٦ .
١٨٧- المصدر السابق ص٨٢ .
١٨٨- المثل السائر ١/٣١٥ .
١٨٩- سورة الناس، الآيات (١ - ٣) .
١٩٠- انظر: الإيضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني ،- ط١- بيروت - لبنان : دار الكتب العلمية، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م، ص٤٠٤.
١٩١- انظر : حسن التوسل إلى صناعة الترسل، شهاب الدين محمود الحلبي ؛ تحقيق ودراسة أكرم عثمان يوسف ،- الجمهورية العراقية : دار الرشيد للنشر، ١٩٨٠م، ص١٨٣ .
١٩٢- خطب ابن نباتة ص٤٤ .
١٩٣- المصدر السابق ص٤٣٨ .
١٩٤- المصدر السابق ص١٠ .
١٩٥- المصدر السابق ص١٠ .
١٩٦- المصدر السابق ص٩٨ .
١٩٧- المصدر السابق ص١٢٤ .
١٩٨- المصدر السابق ص١٣٣ .
١٩٩- المصدر السابق ص٢٦ .
٢٠٠- المصدر السابق ص٣١ .
٢٠١- المصدر السابق ص٦٤ .
٢٠٢- المصدر السابق ص١٩١ .
٢٠٣- المصدر السابق ص٣٩٢ .
٢٠٤- انظر : الإيضاح ص٤٠٢ .
٢٠٥- انظر : القافية (دراسة صوتية)، حازم كمال الدين ،- القاهرة: مكتبة الآداب، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م، ص١٢١.
٢٠٦- اللقم : الطريق الواضح .
٢٠٧- خطب ابن نباتة ص٩٤.
٢٠٨- المصدر السابق ص٤٠.
٢٠٩- المصدر السابق ص١١٢.
٢١٠- المصدر السابق ص١٥٠.
٢١١- المصدر السابق ص٢٦.
٢١٢- المصدر السابق ص٣٩٠.
٢١٣- المصدر السابق ص٢٦.
٢١٤- المصدر السابق ص٩٢.
٢١٥- المصدر السابق ص٤٠.
٢١٦- المصدر السابق ص٢٣٠.
٢١٧- المصدر السابق ص٣٢.
٢١٨- المصدر السابق ص٤٤.
٢١٩- المصدر السابق ص٢٨٤.
٢٢٠- سورة الزلزلة، الآية (٣) .
٢٢١- خطب ابن نباتة ص٤.
٢٢٢- سورة الأنبياء، الآية (٢٣) .
٢٢٣- خطب ابن نباتة ص٣٥ .
٢٢٤- سورة الانفطار، الآية (١٩) .
٢٢٥- خطب ابن نباتة ص٤٥ .
٢٢٦- سورة الأعراف، الآية (٩٩) .
٢٢٧- خطب ابن نباتة ص١٣٤ .
٢٢٨- السوام: جمع سامة، وهي ذات السم.
٢٢٩- الهواب : جمع هابة، وهي الريح .
٢٣٠- سورة الزلزلة، الآيات (٦- ٨) .
٢٣١- خطب ابن نباتة ص١٣٩ .
٢٣٢- المصدر السابق ص٩ .
٢٣٣- سورة القيامة، الآية (٧) .
٢٣٤- خطب ابن نباتة ص١١٣.
٢٣٥- سورة الفتح، الآية (٢٦) .
٢٣٦- خطب ابن نباتة ص٣٥ .
٢٣٧- صحيح مسلم بشرح النووي ؛ مراجع بإشراف حسن عباس

قطب.- ط١ .- الرياض : دار عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م، ١٩٩/٨ .

٢٣٨- خطب ابن نباتة ص٣٠ .

٢٣٩- ديوان محمود بن الحسن الوراق؛ جمعه وحققه وعلق حواشيه محمد زهدي يكن .- بيروت : دار يكن للنشر، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، ص٤٩.

٢٤٠- خطب ابن نباتة ص٣٣ .

٢٤١- شرح ديوان زهير بن أبي سلمى، صنعة أبي العباس ثعلب؛ قدم له ووضع فهارسه حنا نصر الحتي.- ط١ .- بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م، ص٤٣.

٢٤٢- نص المثل : من سل سيف البغي قتل به . انظر : مجمع الأمثال، الميداني .- بيروت : دار مكتبة الحياة، ١٩٨٥م، ٣٦٨/٢ .

٢٤٣- خطب ابن نباتة ص١١٤ .

٢٤٤- نص المثل : شنشنة أعرفها من أخزم . انظر : مجمع الأمثال ٥٠٥/١ .

٢٤٥- خطب ابن نباتة ص٢٨٠ .

٢٤٦- المصدر السابق ص٧ .

٢٤٧- المصدر السابق ص١٣٤ .

٢٤٨- المصدر السابق ص١٥٠ .

٢٤٩- المصدر السابق ص١٧ .

٢٥٠- المصدر السابق ص٢٠ .

المصادر والمراجع

١ - **الأعلام**، الزركلي .- ط١٠ .- بيروت - لبنان : دار العلم للملايين، ١٩٩٢م.

٢ - **الإيضاح في علوم البلاغة**، الخطيب القزويني .- ط١ .- بيروت - لبنان : دار الكتب العلمية، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م .

٣ - **البداية والنهاية**، ابن كثير .- ط١ .- بيروت : مكتبة المعارف، ١٩٦٦م .

٤ - **تاريخ ابن الوردي**، زين الدين عمر بن الوردي .- ط٢ .- النجف : المطبعة الحيدرية، ١٣٨٩هـ / ١٩٦٩م .

٥ - **تاريخ الأدب العربي**، عمر فروخ .- ط٢ .- بيروت - لبنان : دار العلم للملايين، ١٩٧٥م .

٦ - **تاريخ الأدب العربي : عصر الدول والإمارات - الشام -**، شوقي ضيف .- ط٢ .- مصر : دار المعارف، د .ت .

٧ - **التذكرة الحمدونية**، ابن حمدون ؛ تحقيق إحسان عباس وبكر عباس.- ط١ .- بيروت : دار صادر، ١٩٩٦م .

٨ - **حسن التوسل إلى صناعة الترسل**، شهاب الدين محمود الحلبي ؛ تحقيق ودراسة أكرم عثمان يوسف .- الجمهورية العراقية : دار الرشيد للنشر، ١٩٨٠م .

٩ - **الخبر في الأدب العربي : دراسة في السردية العربية**، محمد القاضي .- ط١ .- بيروت - لبنان : دار الغرب الإسلامي، ١٤١٩هـ / ١٩٨٨م .

١٠- **ديوان البحتري**؛ شرحه وعلق عليه محمد التونجي.- ط١ .- دار الكتاب العربي، ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م .

١١- **ديوان خطب ابن نباتة**، بشرح الشيخ طاهر أفندي الجزائري.- بيروت : مطبعة جريدة بيروت، د.ت.

١٢- **ديوان محمود بن الحسن الوراق**؛ جمعه وحققه وعلق حواشيه محمد زهدي يكن .- بيروت : دار يكن للنشر، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م .

١٣- **سير أعلام النبلاء**، الذهبي .- ط١ .- بيروت : مؤسسة الرسالة، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م .

١٤- **شذرات الذهب**، ابن العماد الحنبلي؛ أشرف على تحقيقه وخرج أحاديثه عبد القادر الأرناؤوط؛ حققه وعلق عليه محمود الأرناؤوط.- ط١ .- دمشق، بيروت: دار ابن كثير، ١٤١٠هـ / ١٩٨٩م.

١٥- **شرح ديوان زهير بن أبي سلمى**، صنعة أبي العباس ثعلب؛ قدم له ووضع فهارسه حنا نصر الحتي.- ط١ .- بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م .

١٦- **صحيح مسلم بشرح النووي**، مراجع بإشراف حسن عباس قطب.- ط١ .- الرياض : دار عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م .

١٧- **الصورة بين البلاغة والنقد**، أحمد بسام الساعي .- ط١ .- دمشق: المنارة للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م .

١٨- **الصورة الفنية في التراث الفني والبلاغي عند العرب**، جابر عصفور.- ط٣ .- بيروت : المركز الثقافي العربي، ١٩٩٢م .

١٩- **العبر في خبر من غبر**، الذهبي؛ تحقيق فؤاد السيد .- الكويت : مطبعة حكومة ١٩٦١م .

٢٠- **في النص الأدبي دراسة أسلوبية إحصائية**، سعد مصلوح .- ط١.- جدة : النادي الأدبي الثقافي بجدة، ١٤١١هـ / ١٩٩١م.

٢١- **القافية (دراسة صوتية)**، حازم كمال الدين .- القاهرة : مكتبة الآداب، ١٤١٨هـ / ١٩٩٨م .

٢٢- **كشف الظنون**، حاجي خليفة .- ط٢ .- طهران : المطبعة الإسلامية، ١٣٨٧هـ.

٢٣- **لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب**، محمد خطابي .- ط١.- بيروت - لبنان : المركز الثقافي العربي، ١٩٩١م .

٢٤- **المثل السائر**، ابن الأثير؛ قدم له وحقق وشرحه وعلق عليه أحمد الحوفي وبدوي طبانة .- ط٢ .- الرياض : دار الرفاعي، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م .

٢٥- **مجمع الأمثال**، الميداني .- بيروت: دار مكتبة الحياة، ١٩٨٥م .

٢٦- **مرآة الجنان**، اليافعي .- ط٢ .- القاهرة : دار الكتاب الإسلامي، ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م .

٢٧- **معجم المؤلفين**، عمر رضا كحالة.- بيروت - لبنان : دار إحياء التراث العربي، د . ت .

٢٨- **المفاهيم معالم (نحو تأويل واقعي)**، محمد مفتاح .- ط١ .- بيروت : المركز الثقافي العربي، ١٩٩٩م .

٢٩- **المقامات المشرقية (٥٥٠ - ١٢٠٠هـ)** ، خالد الجديع .- ط١، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م .

٣٠- **النثر الفني في القرن الرابع الهجري**، زكي مبارك .- ط٢ .- مصر : المكتبة التجارية الكبرى بمصر، د . ت .

٣١- **النثر في العصر الجاهلي**، هاشم صالح مناع .- ط١ .- بيروت : دار الفكر العربي، ١٩٩٣هـ .

٣٢- **النجوم الزاهرة**، ابن تغري بردي؛ قدم له وعلق عليه، محمد حسن شمس الدين .- ط١ .- بيروت - لبنان : دار الكتب العلمية، ١٤١٣هـ / ١٩٩٢م .

٣٣- **هدية العارفين**، أسماعيل باشا البغدادي .- إستانبول، ١٩٥١م .

٣٤- **الوافي بالوفيات**، الصفدي، الجزء الثامن عشر، باعتناء أيمن فؤاد سيد، دار النشر فرانز شتاينر، ١٤١١هـ / ١٩٩١م .

٣٥- **وفيات الأعيان**، ابن خلكان ؛ تحقيق إحسان عباس .- بيروت : دار الكتب العلمية، د . ت .